تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء الرابع عشر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى
١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

الجزء الرابع عشر

سورة الحجر

هى مكية وآيها تسع وتسعون .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنها افتتحت بمثل ما افتتحت به سابقتها من وصف الكتاب المبين .

(٢) إنها شرحت أحوال الكفار يوم القيامة وتمنيهم أن لو كانوا مسلمين كما كانت السالفة كذلك .

(٣) إن فى كل منهما وصف السموات والأرض .

(٤) إن فى كل منهما قصصا مفصلا عن إبراهيم عليه السلام .

(٥) إن فى كل منهما تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم بذكر ما لاقاه الرسل السالفون من أممهم وكانت العاقبة للمتقين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١) رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ

يَعْلَمُونَ (٣) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) .

شرح المفردات

ربما (بضم الراء وتخفيف الباء وتشديدها) كلمة تدل على أن ما بعدها قليل الحصول ، فإذا قيل ربما زارنا فلان دل على أن حصول الزيارة منه قليل ، يلههم : أى يشغلهم من قولهم : لهيتُ عن الشيء ألْهَى لْهَيا إذا أعرضت عنه ، ماتسبق : أى ما يتقدم زمان أجلها .

الإيضاح

(الر) تقدم منا القول فى بيان معانى هـذه الحروف ومبانيها ، فذكرنا أنها حروف تنبيه بمنزلة ألا ، ويا ، وينطق بأسمائها ساكنة فيقال: (ألفْ . لامْ . را) .

(تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) أى تلك السورة من آيات ذلك الكتاب الكامل من بين سائر الكتب المنزلة من عند الله ، المبين للرشد من الغى ، والمظهر فى تضاعيفه للحكم والأحكام .

(ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) هذا إخبار من الله عن الكفار بأنهم سيندمون فى الآخرة على ما كانوا عليه من الكفر ، ويتمنون أن لو كانوا فى الدنيا مسلمين . وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا اجتمع أهل النار فى النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا بلى ، قالوا فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا فى النار ؟ قالوا كانت لنا ذنوب فأُخذنا بها ، فسمع الله ماقالوا ، فأمر بمن كان فى النار من أهل القبلة فأخرجوا ، فلما رأى ذلك من بقى من الكفار قالوا يا ليتنا كنا مسلمين

فنخرج كما خرجوا ، قال ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ـ الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ، ربما يود الذين كفروا لوكانوامسلمين».

ونحو الآية قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » . قال الزجاج : إن الكافر كلما رأى حالا من أحوال العذاب ورأى حالا من أحوال المسلم ودّ أن لو كان مسلما .

وقصارى ذلك — قد يتمنى الذين كفروا لو كانوا مسلمين حينما يعاينون العذاب وقت الموت : « وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ» وفى الموقف حينما يرون هول العذاب وقد انصرف المسلمون إلى الجنة وسيقوا هم إلى النار والمسلمون المذنبون عذبوا بذنوبهم ثم خرجوا منها وبقى الكافرون فى جهنم .

وقد جاء التقليل على سنة العرب فى نحو قولهم : ربما تندم على ما فعلت ، ولعلك تندم على مافعلت، لايقصدون التقليل فى نحو ذلك ، وإنما يريدون أن الندم لو كان مشكوكا فيه أولو كان قليلا لحق عليك ألا تفعل هذا الفعل ، إذ العاقل يتحرز من التعرض للغم المظنون كما يتعرض للغم المتيقن ، ويبتعد عن القليل منه كما يبتعد عن الكثير .

(ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل) أى دعهم أيها الرسول فى غفلاتهم يأكلون كما تأكل الأنعام ويتمتعون بلذات الدنيا وشهواتها ، وتلهيهم الآمال عن الإيمان ، فيقول الرجل منهم غدا سأنال ثروة عظيمة وأحظى بما أشتهى ويعلو ذكرى ويكثر ولدى ، وأبنى القصور ، وأكثر الدور ، وأقهر الأعداء ، وأفاخر الأنداد ، إلى نحو ذلك مما يغرق فيه من بحار الأمانى والآمال وطلب المحال .

ثم علل الأمر بتركهم بقوله :

(فسوف يعلمون) سوء صنيعهم إذا هم عاينوا سوء جزائهم ووخامة عاقبتهم .

وفى هذا وعيد بعد تهديد وإلزام لهم بالحجة ومبالغة فى الإنذار ، وقد

جاء فى أمثالهم (أعذر من أنذر) و إيماء إلى أن التلذذ والتنعم وعدم الاستعداد للآخرة والتأهب لها ــ ليس من أخلاق المؤمنين .

أخرج أحمد والطبرانى والبيهقى عن عمرو بن شعيب مرفوعا قال : « صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ، و يهلك آخرها بالبخل والأمل» . وروى عن الحسن أنه قال : ما أطال عبد الأمل ، إلا أساء العمل ، وروى عن على أنه قال : إنما أخشى عليكم اثنتين ، طول الأمل واتباع الهوى ، فإن طول الأمل ينسى الآخرة ، واتباع الهوى يصد عن الحق .

و بعد أن هدد من كذب الرسول بقوله: ذرهم يأكلوا و يتمتعوا و يلههم الأمل، ذكر سر تأخير عذابهم إلى يوم القيامة وعدم التعجيل به كما فعل بكثير من الأمم السالفة فقال :

(وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم) أى وما أهلكنا قرية من القرى بالخسف بها و بأهلها كما فعل ببعضها ، أو بإخلائها من أهلها بعد إهلاكهم كما فعل بأخرى ، إلا ولها أجل مقدر مكتوب فى اللوح المحفوظ لاينسى ولايغفل عنه ولايتقدم عن وقته ولا يتأخر .

وخلاصة ذلك — إننا لو شئنا لعجلنا لهم العذاب فصاروا كأمس الدابر ، ولكن لكل أجل كتاب ، وشأننا الإمهال لا الإهمال .

وبعد أن بين سبحانه أن الأمم المهلكة كان لكل منهم وقت معين لهلاكهم على حسب ما هو مكتوب فى اللوح ــ بين أن كل أمة منهم ومن غيرهم لها أجل لا يمكن التقدم عليه ولا التأخر عنه فقال :

(ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) أى لايجىء هلاك أمة قبل مجىء أجلها ، ولا يتأخر الهلاك متى حل الأجل .

وفى هذا تنبيه لأهل مكة و إرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من الشرك والإلحاد

الذى يستحقون به الهلاك ، وزجر لهم بأن هـــذا الإمهال لاينبغى أن يغتروا به ، فالهلاك مدخر لهم لايتقدم ولا يتأخر .

وَقَالُوا يَأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِى شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥) .

شرح المفردات

الذكر : هو القرآن ، و (لوما) مثل (هلا) كلمة تفيد الحث والحضّ على فعل ما يقع بعدها ، منظرين : أى مؤخرين ، والشيع : واحدهم شيعة وهى الجماعة المتفقة على مبدأ واحد فى الدين والمعتقدات ، أو فى المذاهب والآراء . نسلكه : أى ندخله يقال سلكت الخيط فى الإبرة : أى أدخلته فيها ، يعرجون : يصعدون ، سكرت : سدت ومنعت من الإبصار ، مسحورون : أى سحرنا محمد بظهور ماأبداه من الآيات .

المعنى الجملى

بعد أن هدد سبحانه الكافرين وبالغ فى ذلك أيما مبالغة ـ شرع يذكر بعض مقالاتهم فى محمد صلى الله عليه وسلم المتضمنة للكفر بما جاء به ، ثم يذكر ماهم فيه من

جحود وعناد بلغا مدًى تنكر معه المشاهدات ، ويدّعى معه السحر والخداع حين رؤية المبصرات .

ثم ذكر سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم تسلية له أن ما صدر منهم من السفه ليس بدعا ، فهذا دأب كل محجوج ، فكثير من الأمم السالفة فعلت مثل هذا مع أنبيائها ، فلك أسوة بهم فى الصبر على سفاهتهم وجهلهم .

قال مقاتل : القائلون هذه المقالة هم عبد الله بن أمية والنضر بن الحرث ونوفل ابن خويلد والوليد بن المغيرة من صناديد قريش .

الإيضاح

(وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون) أى قالوا استهزاء وتهكما : أيها الرجل الذى زعم أنه نزل عليه القرآن : إن ما تقوله أملاه عليك الجنون ، وليس له معنى معقول ، وهو مخالف لآرائنا ، بعيد من معتقداتنا ، فكيف نقبل ما لا تقبله العقول ، ولا ترضاه الفحول من رجالاتنا الفخام ، وعشائرنا العظام ؟ .

(لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين) أى إن كان ما تدعيه حقا وقد أيدك الله وأرسلك ، فما منعك أن تسأله أن ينزل معك ملائكة من السماء يشهدون بصدق نبوتك .

وخلاصة ذلك : إن من يخالف آراءنا إما مجنون وإما له سلطان عظيم من ربه وحينئذ يقويه بالملائكة ليشهدوا بصدقه .

ونحو الآية قوله : « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ » وقول فرعون فى شأن موسى : « فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ » وقوله : « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا » .

وقد أجاب الله عن اقتراحهم فقال :

(ما ننزل الملائكة إلا بالحق) أى ما ننزل الملائكة إلا بالحكمة والفائدة ، وليس فى نزول الملائكة من السماء وأنتم تشاهدونهم — فائدة لكم ، لأنكم إذا رأيتموهم قلتم إنهم بشر لأنكم لاتطيقون رؤيتهم إلا وهم على الصورة البشرية إذ هم من عالم غير عالمكم ، وإذا قالوا نحن ملائكة كذبتموهم لأنهم على صورتكم فيحصل اللبس ولا تنتفعون بهم وإلى هذا أشار فى سورة الأنعام بقوله : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ » .

(وما كانوا إذا منظرين) أى إن فى نزول الملائكة ضررا لهم لامحالة ، لأنا نهلكهم ولا نؤخرهم ، إذ قد جرت عادتنا فى الأمم قبلهم أنهم إذا اقترحوا آية وأنزلناها عليهم ولم يؤمنوا بها — يكون العذاب فى إثرها ، فلو أنا أنزلناهم ولم يؤمنوا بهم لحق عليهم عذاب الاستئصال ولم يُنْظَرُوا ساعة من نهار .

والخلاصة — إنه ليس فى إنزال الملائكة إليهم فائدة لهم بل فيه اللبس عليهم ، إلى ما فيه من الضرر المحقق لهم وهو الهلاك ، وحينئذ يفوت ما قضينا به من تأخيرهم وإخراج من أردنا إيمانه من أصلابهم .

ثم أجاب سبحانه عن قولهم الأول وردّ إنكارهم تنزيل الذكر واستهزاءهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وسلاه على ذلك بقوله :

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) أى إنما أنتم قوم ضالون مستهزئون بنبينا ، وليس استهزاؤكم بضائره ، لأنا نحن نزلنا القرآن ونحن حافظوه ، فقولوا إنه مجنون ، ونحن نقول : إنا نحفظ الكتاب الذى أنزلناه عليه من الزيادة والنقص والتغيير والتبديل والتحريف والمعارضة والإفساد والإبطال .

وسيأتى فى مستأنف الأزمان من يتولون حفظه والذب عنه ويدعون الناس إليه ويستخرجون لهم ما فيه من عبر وحكم وآداب وعلوم تناسب ما تستخرجه

العقول من المخترعات ، وتستنبطه الأفكار من نظريات وآراء فيستنير بها العارفون ، ويهتدى بهديها المفكرون ، فلا تبتئس أيها الرسول بما يقولون وما يفعلون .

ثم سلّى رسوله على ما أصابه من سفه قومه وادعائهم جنونه ـ بأن هـذا دأب الأمم المكذبة لرسلها من قبل ، فلقد أصابهم مثل ما أصابك من قومك ، فاستهزءوا بهم كما استهزأ قومك بك ، فنصرنا رسلنا وكبتنا أعداءهم وسيكون أمركم وأمرهم كذلك ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين ، وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) أى إننا أرسلنا قبلك رسلا لأمم قد مضت ، وما أتى أمة رسول إلا كذبوه واستهزءوا به ، لما جرت به العادة من أن فعل الطاعات وترك اللذات ـ مستثقل على النفوس ـ إلى أنهم يدعونهم إلى ترك ما ألفوا من المعتقدات الخبيثة ، وترك عبادة الأوثان الباطلة ، وذلك مما يشق على النفوس ، إلى أن الرسول قد يكون فقيرا لا أعوان له ولا أنصار ، ولا مال ولا جاه ، فلا يتبعه الرؤساء وذوو البأس والقوة ، بل يعملون على مشاكسته ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، إلى أن الله يخذلهم ويلقى دواعى الكفر فى قلوبهم على حسب السنن التى سنها لعباده كما يرشد إلى ذلك قوله:

(كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين ، لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين) أى كذلك نلقى القرآن فى قلوب المجرمين مستهزأ به غير مقبول لديهم ، لأنه ليس فى نفوسهم استعداد لتلقى الحق ، ولا تضىء نفوسهم بمصابيح هدايته الربانية ، كما كانت حال الأمم الماضية حين ألقيت عليهم الكتب المنزلة من الملأ الأعلى .

وقد جرت سنة الله فى الأولين ممن بعث إليهم الرسل أن يخذلهم ويدخل الكفر والاستهزاء فى قلوبهم ، ثم يهلكهم وتكون العاقبة للمتقين والنصر حليف رسله والمؤمنين ، فلك أسوة بالرسل قبلك مع أممهم المكذبة ، ولست بأوحدىّ فى ذلك .

والخلاصة ـــ هكذا نفعل باللاحقين كما فعلنا بالسابقين ، ويستهزئ بك

المجرمون ولا يؤمنون بكتابنا ، وسيحل بهم مثل ما حل بالأولين وتنصرك عليهم بعد حين كما قال : « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » .

ثم بين سبحانه عظيم عنادهم ومكابرتهم للحق فقال :

(ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) أى ولو فتحنا على هؤلاء المعاندين بابا من السماء فظلوا فى ذلك الباب يصعدون فيرون من فيها من الملائكة وما فيها من العجائب — لقالوا لفرط عنادهم وغلوهم فى المكابرة : إنما سدت أبصارنا ، فما نراه تخيل لا حقيقة له ، وقد سحرنا محمد بما يظهر على يديه من الآيات .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ » .

وخلاصة هذا — هبنا فتحنا عليهم بابا من السماء وقلنا لهم اعرجوا فيه ، أفلا يقولون فى أنفسهم ويقول بعضهم لبعض : إنما سحرنا محمد كما يفعل علماء السيميا إذ يفعلون أفعالا تخيل للإنسان أنه طائر وليس بطائر ، وكما يفعل علماء التنويم المغناطيسى فى هذه الأيام ، فالمنوَّم يقول المنوِّم . أنت ملك . أنت امرأة . أنت كذا فيصدق كل ما قيل له . وهكذا فى النوع البشرى أقوام لهم قدرة على استهواء العقول فيخيلون للانسان ما لا حقيقة له ، وقد أصبح هذا العلم فنًّا يدرس فى معاهد أوربا وأمريقا . فكيف يكون مثل هذا دليلا أو موجبا للتصديق ؟ كلا فإن أمثال ذلك لا يقوم بهداية نوع الإنسان .

وبعد فكيف يقترح هؤلاء عليك الآيات ، ويغرمون بما يخرق العادات ، من ملائكة يرونها ، وعجائب ينظرونها ، وهل تغنى تلك الآيات ، وهل النوع الإنسانى يكفيه ما يخالف العادات ؟ فما يشتبه على الناس بأفعال السحرة والمشعوذين يوقعهم

فى اللبس ، فكم من نبى أيدناه بمثل تلك الآيات ولم يؤمن به من قومه إلا قليل منهم وما الآيات إلا ما تفهمه العقول ، وتمحصه القرائح درسا وتحليلا ، وبحثا واستنباطا .

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠)

شرح المفردات

البروج : واحدها برج وهى النجوم العظام ومنها نجوم البروج الاثنى عشر المعروفة فى علم الفلك ، للناظرين : أى المفكرين المستدلين بذلك على قدرة مقدّرها ، وحكمة مدبرها ، وحفظناها : أى منعناها ، والرجيم : أى المرجوم المرمى بالرجام : أى الحجارة والمراد بالرجيم هنا المرمى بالنجوم ، واسترق من السرقة ، وهى أخذ الشىء خفية ، شبه به خطفتهم اليسيرة من الملأ الأعلى ، والسمع : المراد به ما يسمع ، والشهاب : الشعلة الساطعة من النار الموقدة ومن السحاب فى الجو ، وتبعت القوم تبعا وتباعة بالفتح: أى مشيت خلفهم أومروابك فمضيت معهم ، وأتبعت القوم إذا كانوا قد سبقوك فلحقتهم ، مددناها : أى بسطناها ، والرواسى : واحدها راسية وهى الجبال الثوابت ، موزون : أى مقدر بمقدار معين تقتضيه الحكمة والمصلحة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر شديد جحودهم وأنهم مهما أوتوا من الآيات لم يفدهم ذلك شيئا حتى بلغ من أمرهم أن ينكروا المشاهدات ويدّعوا الخداع حين رؤية المبصرات

ـ أعقب هذا ببيان أنهم قد كانوا فى غنى عن كل هذا ، فإن فى السماء و بروجها العالية ، وشموسها الساطعة ، وأقمارها النيرة ، وسياراتها الدائرة ، وثوابتها الباسقة ، عبرة لمن اعتبر ، وحجة لمن ادّكر ، فهلاّ نظروا إلى الـكواكب وحسابها ونظامها ومداراتها ، وكيف حدثت بها الفصول والسنون ، وكيف كان ذلك بمقادير محدودة وأوقات معلومة ؟ لاتغيير فيها ولا تبديل ، فبأمثال هذا يكون اليقين ، وبالتدبر فيه تقوى دعائم الدين ، ويشتد أزر سيد المرسلين .

وهلا رأوا الأرض كيف مدّت ، وثبتت جبالها ، وأنبتت نباتها، بمقادير معلومة موزونة فى عناصرها وأوراقها ، وأزهارها وثمارها ، وجعل فيها معايش للانسان والحيوان ، أفلا يعتبرون بكل هذا ؟ « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ » .

الإيضاح

(ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين) أى ولقد خلقنا فى السماء نجوما كبارا ثوابت وسيارات ، وجعلناها وكواكبها بهجة لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من عجائبها الظاهرة ، وآياتها الباهرة التى يحار الفكر فى دقائق صنعتها ، وقدرة مبدعها .

ونحو الآية قوله تعالى : « إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ » .

(وحفظناها من كل شيطان رجيم) أى ومنعنا كل شيطان رجيم من القرب منها كما قال فى آية أخرى : « وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ » أى وحفظناها من كل شيطان خارج من الطاعة برميه بالشهب كما تحفظ المنازل من متجسس يخشى منه الفساد .

(إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) أى لـكن من أراد اختطاف شىء من عالم الغيب مما يتحدث به الملائكة فى الملأ الأعلى ـ تبعه كوكب مشتعل

نارا ظاهرا للمبصرين فأحرقه ، ولم يصل إلى معرفة شىء مما يدبر فى ملكوت السموات ، وبهذا المعنى قوله : « لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ »

وجاء بمعنى الآية قوله فى سورة الجن حكاية عنهم : « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً ، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً » وقوله فى سورة الملك : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ » .

وبعدُ فالكتاب الكريم أخبر بأن الشياطين أرادوا أن يختطفوا شيئا من أخبار الغيب مما لدى الملائكة الكرام ، فسلطت عليهم الشهب المشتعلة والنجوم المتقدة فأحرقتهم ، ولا نبحث عن معرفة كنه ذلك ، ولا نمعن فى النظر لندرك حقيقته ، لأنا لم نؤت من الوسائل والأسباب ما يمكننا من معرفة ذلك معرفة صحيحة ، تجعلنا نؤمن به إيمانا مبنيا على البرهان بوسائله المعروفة ، وليس لنا إلا التصديق بما جاء فى الكتاب وأوحى به إلى النبى الكريم ، والبحث وراء ذلك لا يقفنا على علم صحيح بل على حدْس وتخمين لا حاجة للمسلم به للاطمئنان فى دينه ، فالأحرى به أن يعرض عنه لئلا يحيد عن القصد ويضل عن سواء السبيل .

وبعد أن ذكر الدلائل السماوية على وحدانيته أتبعها بذكر الدلائل الأرضية فقال :

(والأرض مددناها) أى وقد بسطنا الأرض وجعلناها ممتدة الطول والعرض والعمق ، ليمكن الانتفاع بها على الوجه الأكمل ، وهذا فيما يظهر فى مرأى العين ، فلا يدل على نفى الكروية عن الأرض ، لأن الكرة العظيمة ترى كالسطح المستوى

(وألقينا فيها رواسى) أى وجعلنا فيها جبالا ثوابت خوف أن تضطرب بسكانها كما قال فى آية أخرى : « وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ » وقد سبق تفصيل ذلك فى سورة الرعد .

(وأنبتنا فيها من كل شىء موزون) أى إن كل نبات قد وزنت عناصره وقدرت تقديرا ، فترى العنصر الواحد يختلف فى نبات عنه فى آخر بوساطة امتصاص الغذاء من العروق الضاربة فى الأرض ومنها يرفع إلى الساق والأغصان والأوراق والأزاهير ، والذى حدد هذا الاختلاف ، تلك الفتحات الشعرية التى فى ظواهر الجذور ، وثقوب كل نبات لاتسع إلا المقدار اللازم لها من العناصر وتطرد ما سواه ، لأنه لايلائمها ، إذ هى قد كونت على هيئة خاصة بحيث لاتبتلع إلا تلك المقادير بعينها .

وهاك عنصر البوتاس تره يدخل فى حب الذرة الذى نأكله بمقدار ٣٢./. وفى القصب ٣٤٫٣./. وفى البرسيم بمقدار ٣٤٫٦./. وفى البطاطس بمقدار ٦١٫٥./. وبهذا التفاوت صلح القصب لأن يكون سكرا ، والبرسيم لأن يكون قوتا للبهائم ، والذرة والبطاطس لأن تكونا قوتا للانسان .

وحسبك دليلا على ذلك ماتجده فى سورة الرحمن من قوله : « وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ » كما نظم سبحانه الكواكب فى سيرها وفى أوضاعها وفى حركاتها وفى أضوائها ، ووزن عناصرها بمقادير يتناسب بعضها مع بعض .

فلك الحمد ربنا جعلت كل شىء فى الحياة موزونا بقدر معلوم لنتدبر نظم الحياة فنعرف قدرة منشىء العالم وأنه لم يخلق شيئا فيه جزافا ، بل قدره بقدر معلوم ، ليكون فيه دليل على قدرة المبدع والمدبر له حال وجوده .

(وجعلنا لكم فيه معايش) أى إن أنواع معايشكم من غذاء وماء ولباس ودواء قد سخرناها لكم فى الأرض ، فلا السمك فى البحر غذيتموه ، ولا الطير فى الجوّ ربيتموه ، ولاغيرهما من أشجار الجبال والغابات وحيوان البر والبحر خلقتموه .

(ومن لستم له برازقين) أى وجعلنا لكم فيها من لستم رازقيه من العيال والمماليك والخدم والدواب ، وفى هذا إيماء إلى أن الله يرزقهم و إياهم لا أنهم يرزقون منهم ، وفى ذلك عظيم المنة وجزيل الفضل والعطاء وواسع الرحمة لعباده .

وخلاصة هذا — إنه سبحانه يسر لكم أسباب المكاسب ، وصنوف المعايش وسخر لكم الدواب التى تركبونها ، والأنعام التى تأكلونها ، والعبيد التى تستخدمونها ، فكل أولئك رزقهم على خالقهم لاعليكم ، فلكم منها المنفعة ورزقها على الله تعالى .

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) .

شرح المفردات

الخزائن : واحدها خزانة وهى المكان الذى يحفظ فيه نفائس الأموال ، واللواقح : واحدها لاقح أى ذات لقاح وحمل ، وأسقيناكموه : أى جعلناه لكم سقيا لمزارعكم ومواشيكم ، تقول العرب إذا سقت الرجل ماء أولبنا سقيته وإذا أعدوا له ماء لشرب أرضه أو ماشيته قالوا أسقيته أوأسقيت أرضه أوماشيته ، والمستقدمين : من ماتوا ، والمستأخرين : الأحياء الذين لم يموتوا بعد .

المعنى الجملى

بين سبحانه فيما سلف أنه أنزل النبات وجعل لنا فيه معايش فى هذه الحياة وهنا أتبعه بذكر ما هو كالسبب فى ذلك ، وهو أنه تعالى مالك كل شىء ، وأن كل شىء سهل عليه ، يسير لديه ، فإن عنده خزائن الأشياء من النبات والمعادن النفيسة والمخلوقات البديعة مما لاحصر له .

الإيضاح

(وإن من شىء إلا عندنا خزائنه) أى ما من شىء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده والإنعام به متى أردنا دون أن يكون تأخير ولا إبطاء ، فخزائن ملكنا مليئة بما تحبون من النفائس ، غير محجوبة عن الباحث الساعى إلى كسبها من وجوهها على حسب السنن التى وضعناها ، والنظم التى قدرناها ، ولا يمنعها مانع ، ولا يستطيع دفعها دافع ، فهى تحت قبضة الطالب لها إذا أحسن المسعى ، وأحكم الطالب كما قال : « فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » .

(وما ننزله إلا بقدر معلوم) أى وما نعطى ذلك إلا بقسط محدود نعلم أن فيه الكفاية لدى الحاجة ، وفيه الرحمة بالعباد كما قال : « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » .

وقد جرت سنة القرآن بأن يسمى ما يصل إلى العباد بفضل الله وجوده إنزالا كما قال : « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ » وقال : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » .

ثم فصل بعض ما فى خزائنه من النعم فقال :

(وأرسلنا الرياح لواقح) أى إن من فضله على عباده وإحسانه إليهم أن أرسل إليهم الرياح لواقح ، ويكون ذلك على ضروب :

(١) أن يرسلها حاملات للسحاب فتلقح بها الأشجار بما تنزل عليها من الأمطار فتغيرها من حال إلى حال فتعطيها حياة جديدة؛ إذ تزدهر أزهارها ، وتثمر أغصانها ، بعد أن كانت قد ذبلت وصوّحت وأصبحت فى مرأى العين كأنها ميتة لاحياة فيها كما قال تعالى : « وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ » .

(٢) أن يرسلها ناقلة لقاح الأزهار الذكور إلى الأزهار الإناث لتخرج الثمر والفواكه للناس .

(٣) أن يرسلها لتزيل عن الأشجار ماعلق بها من الغبار لينفذ الغذاء إلى مسامها فيكون ذلك رياضة للشجر والزرع كرياضة الحيوان .

(فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه) أى فأنزلنا من السحاب مطرا فأسقيناكم ذلك المطر لشرب زرعكم ومواشيكم ، وفى ذلك استقامة أمور معايشكم وتدبير شئون حياتكم إلى حين كما قال : « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ » .

(وما أنتم له بخازنين) أى ولستم بخازنى الماء الذى أنزلناه فتمنعوه من أن أسقيه من أشاء ، لأن ذلك بيدى وهو خاضع لسلطانى ، إن شئت حفظته على سطح الأرض وإن شئت غار فى باطنها وتخلل طبقاتها ، فلا أبقى منه شيئا ينفع الناس والحيوان ويسقى الزرع الذى عليه عماد حياتكم .

والخلاصة — نحن القادرون على إيجاده وخزنه فى السحاب وإنزاله ، وما أنتم على ذلك بقادرين .

وبعد أن ذكر نظم المعيشة فى هذه الحياة ذكر إحياء الإنسان وإماتته فقال :

(وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون) أى وإنا لنحيي من كان ميتا إذا أردنا ، ونميت من كان حيا إذا شئنا ، ونحن نرث الأرض ومن عليها فنميتهم جميعا ولا يبقى حى سوانا ، ثم نبعثهم كلهم ليوم الحساب فيلاقى كل امرئ جزاء ما عمل إن خيرا وإن شرا .

ثم أقام الدليل على إمكان ذلك وأثبت قدرته عليه فقال :

(ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) أى ولقد علمنا من مضى منكم وأحصيناهم وما كانوا يعملون ، ومن هو حى ومن سيأتى بعدكم ، فلا تخفى علينا أحوالكم ولا أعمالكم ، فليس بالعسير علينا جمعكم يوم التناد للحساب والجزاء يوم ينفخ فى الصور كما قال :

(وإن ربك هو يحشرهم) فيجمع الأولين والآخرين عنده يوم القيامة ، من أطاعه منهم ومن عصاه ويجازى كلا بما عمل على حسب ما وضع من السنن ، وقدّر من ارتباط المسببات بأسبابها ، وجعل لكل عمل جزاء له .

ثم أكد هذا وزاده إيضاحا فقال :

(إنه حكيم عليم) أى إنه تعالى باهر الحكمة واسع العلم ، فهو يفعل ما يشاء على مقتضى الحكمة والعدل ، وما يؤيده من سعة العلم والفضل .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ

اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤) .

شرح المفردات

صلصال : أى طين يابس يصلصل و يصوت إذا نقر وهو غير مطبوخ ، فإذا طبخ فهوفخّار ، وحمإ : أى طين تغير واسودّ من مجاورة الماء له واحدته حمأة ، ومسنون : أى مصوّر مفرغ على هيئة الإنسان كالجواهر المذابة التى تصب فى القوالب ، والجانّ أى هذا الجنس كما أن الإنسان يراد به ذلك ، فإذا أريد بالإنسان آدم أريد بالجان أبو الجن ، ونار السموم : هى النار الشديدة الحرارة التى تقتل وتنفذ فى المسام ، بشرا : أى إنسانا وسمى بذلك لظهور بشرته أى ظاهر جلده ، سويته : أى أتممت خلقه وهيأته لنفخ الروح فيه ، والنفخ : إجراء الريح من الفم أو غيره فى تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها ، و يراد به هنا إضافة ما به الحياة على المادة القابلة لها ورجيم : أى مرجوم مطرود من كل خير وكرامة ، اللعنة : الإبعاد على سبيل السخط يوم الدين : أى يوم الجزاء ، فأنظرنى : أى أمهلنى وأخرنى ولا تمتنى ، و يوم الوقت المعلوم: هو وقت النفخة الأولى حين تموت الخلائق كما روى عن ابن عباس، والإغواء: الإضلال ، هذا صراط علىّ : أى هذا صراط حق لابد أن أراعيه ، مستقيم : أى لا انحراف فيه فلا يعدل عنه إلى غيره ، والسلطان : التسلط والتصرف بالإغواء ، سبعة أبواب : أى سبع طبقات ، جزء مقسوم : أى فريق معين مفروز من غيره :

الإيضاح

(ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون) أى ولقد خلقنا أول فرد من أفراد الإنسان من طين يابس يصلصل و يصوت إذا نقر ، أسود متغير مفرغ فى قالب ليجف و ييبس كالجواهر المذابة التى تصب فى القوالب .

ونحو الآية قوله : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ » وقد جاء خلق آدم على أطوار مختلفة فكان أولا ترابا كما قال : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ » ثم كان طينا كما قال : « إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ » ثم كان صلصالا من حمأ مسنون كما جاء فى هذه الآية وإنما خلقه على ذلك الوضع ليكون خلقه أعجب وأتم فى الدلالة على القدرة .

(والجانّ خلقناه من قبل من نار السموم) أى وخلقنا هذا الجنس من قبل خلق آدم من نار الريح الحارة التى لها لفح وتقتل من أصابته .

وعن ابن مسعود هذه السموم جزء من سبعين جزءا من السموم التى خلق منها الجان ثم قرأ : (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) وقد ورد فى الصحيح «خلقتُ الملائكة من نور ، وخلقت الجان من مارج من نار ، وخُلق آدم مما وصف لكم ».

وفى الآية إيماء إلى شرف آدم عليه السلام وطيب عنصره وطهارة محتده ، وعلينا أن نؤمن بأن الجن خلقت من النار، ولكنا لا نعرف كنه ذلك ولا حقيقته ، فذلك ما لا سبيل إلى معرفته إلا من طريق الوحى .

وبعد أن ذكر سبحانه فى معرض الدليل على قدرته ــ خلق الإنسان الأول ، ذكر بعده مقاله للملائكة والجن بشأنه فقال :

(وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين . قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون) أى واذكر أيها الرسول لقومك حين نوّه ربكم بذكر أبيكم آدم فى ملائكته قبل خلقه ، وتشريفه بأمر الملائكة بالسجود له ، وتخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة حسدا وعنادا واستكبارا بالباطل فقال : لم أكن لأسجد الخ .

وحكى عنه فى آية أخرى أنه قال : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » .

وتقدم هذا القصص فى سورة الأعراف وقلنا هناك : إن الأمر بالسجود أمر تكليفى ، وأنه قد وقع حوار بين إبليس وربه ، ويرى كثير من العلماء أن القصة بيان لغرائز البشر والملائكة والشيطان ، إذ جعل الملائكة وهم المدبرون لأمور الأرض بإذن ربهم مسخرون لآدم وذريته ، وجعل هـذا النوع مستعدا للانتفاع بالأرض كلها لعامه بسنن الله فيها وعمله بهذه السنن ، فانتفع بمائها وهوائها ومعادنها ونباتها وحيوانها وكهربائها ونورها ، وبذا أظهر حكمة الله فى خلقها ، واصطفى بعض أفراده وخصهم بوحيه ورسالته وجعلهم مبشرين ومنذرين ، وجعل الشيطان عاصيا متمردا على الإنسان وعدوا له ، وجعل النفوس البشرية وسطا بين النفوس الملكية المفطورة على طاعة الله و إقامة سننه فى صلاح الخلق ، و بين أرواح الجن الذين يغلب على شرارهم ــ الشياطين ــ التمرد والعصيان .

وقد ذكر سبحانه حجاج إبليس وذكر سبب امتناعه عن السجود لآدم بأنه خير منه فإنه خلق من النار وآدم من الطين والنار خير من الطين وأشرف منه ، والشريف لايعظم من دونه ولو أمره ربه بذلك .

وفى هذا ضروب من الجهالة وأنواع من الفسق والعصيان فإنه :

(١) اعترض على خالقه بما تضمنه جوابه .

(٢) احتج عليه بما يؤيد به اعتراضه

(٣) إنه جعل امتثال الأمر موقوفا على استحسانه وموافقته لهواه ، وهذا رفض لطاعة الخالق وترفع عن مرتبة العبودية .

(٤) استدلاله على خيريته بالمادة التى منها التكوين ، وخيرية المواد بعضها على بعض أمر اعتبارى تختلف فيه الآراء ، إلى أن الملائكة خلقوا من النور وهو قد خلق من النار ، والنور خير من النار ، وهم قد سجدوا امتثالا لأمر ربهم .

(٥) إنه قد جهل ما خص به آدم من استعداده العلمى والعملى أكثر من سواه، ومن تشريفه بأمر الملائكة بالسجود له، فكان بذلك أفضل منهم، وهم أفضل من إبليس بعنصر الخلقة والطاعة لربهم.

(قال فاخرج منها فإنك رجيم. وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين. قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون. قال فإنك من المنظرين. إلى يوم الوقت المعلوم) أمره سبحانه أمرا كونيا لا يخالف بالخروج من المنزلة التى كان فيها من الملإ الأعلى، ثم جعله مرجوما مطرودا وأتبعه لعنة لاتزال متواصلة لاحقة به متواترة عليه إلى يوم القيامة وهو يبعث الخلق من قبورهم فيحشرون لموقف الحساب وهو وقت النفخة الأولى، فلما تحقق النَّظِرة.

(قال رب بما أغويتنى لأزينّ لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلصين) أى قال إبليس: رب بسبب إغوائك إياى وإضلالى لأزينن لذرية آدم وأحببنّ إليهم المعاصى وأرغبنهم فيها ولأغوينهم كما أغويتنى وقدرت علىّ ذلك إلا من أخلص منهم لطاعتك، ووفقته لهدايتك، فإن ذلك ممن لاسلطان لى عليه ولا طاقة لى به.

ثم هدده سبحانه وأوعده بقوله:

(قال هذا صراط علىّ مستقيم) أى قال هذا طريق مرجعه إلىّ فأجازى كل امرئ بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر، كما يقول القائل لمن يتوعده ويتهدده: طريقك علىّ. وأنا على طريقك: أى لامهرب لك منى، ونظير الآية قوله تعالى: « إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ».

وهذا رد لما جاء فى كلام إبليس حيث قال: « لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ » الآية.

(إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) أى إن عبادى

لاسلطان لك على أحد منهم سواء أكانوا مخلصين أم غير مخلصين ، لكن من اتبعك باختياره صار من أتباعك .

وقال سفيان بن عيينة : ليس لك عليهم قوة ولا قدرة على أن تلقيهم فى ذنب يضيق عنه عفوى .

والخلاصة — إن إبليس أوهم أن له على بعض عباد الله سلطانا بقوله لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين ، فأكذبه الله بقوله إن عبادى الخ .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن إبليس : « وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي » وقوله : « إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ » .

(وإن جهنم لموعدهم أجمعين) أى وإن جهنم موعد جميع من اتبع إبليس وهى مقرهم وبئس المهاد جزاء ما اجترحوا من السيئات وكفاء ما دنسوا به أنفسهم من قبيح المعاصى .

(لها سبعة أبواب) أى لها سبع طبقات ينزلونها على حسب مراتبهم فى الغواية والضلالة .

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها : جهنم والسعير ولظى والحُطَمة وسقر والجحيم والهاوية وهى أسفلها .

(لكل باب منهم جزء مقسوم) أى كتب لكل باب منها فريق معين من أتباع إبليس يدخلونه ولا محيد لهم عنه على حسب أعمالهم واختلاف مراتبهم فى النار .

قال ابن جريج : النار سبع دركات وهى جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية ؛ فأعلاها للعصاة الموحدين ، والثانية لليهود ، والثالثة للنصارى ، والرابعة للصابئين ، والخامسة للمجوس ، والسادسة للمشركين ، والسابعة للمنافقين ، فجهنم أعلى الطبقات ثم ما بعدها تحتها وهكذا .

وروى عن ابن عباس أن جهنم لمن ادعى الربوبية ، ولظى لعبدة النار ، والحطمة لعبدة الأصنام ، وسقر لليهود ، والسعير للنصارى ، والجحيم للصابئين ، والهاوية للموحدين العصاة ، وهؤلاء يرجى لهم ولا يرجى لغيرهم أبدا . وليس فى هذا أثر مرفوع يمكن أن يركن إليه ويجعل حجة فيه .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) .

شرح المفردات

المتقون : هم الذين اتقوا الكفر والفواحش ولهم ذنوب من الصغائر تكفرها الصلوات وغيرها ، جنات : أى بساتين ، وعيون : أى أنهار جارية ، بسلام : أى بسلامة من الآفات وأمن من المخافات ، والغل : الحقد الكامن فى القلب ، والسرر : واحدها سرير وهو مجلس رفيع مهيأ للسرور ، والنصب : الإعياء والتعب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال أهل الغواية وبين أنهم فى نار جهنم يخلدون فيها أبدا وأنهم يكونون فى طبقات بعضها أسفل من بعض بمقدار ما اجترحوا من السيئات ، واقترفوا من المعاصى ـ أردفه بذكر حال أهل الجنة وما يتمتعون به من نعيم مقيم ، ووفاق بعضهم مع بعض ، لاضغن بينهم ولا حقد ، وهم يتحدثون على سرر متقابلين ولا يجدون مس التعب والنصب ، ولا يخرجون منها أبدا .

الإيضاح

(إن المتقين فى جنات وعيون) أى إن الذين اتقوا الله وخافوا عقابه فأطاعوا أوامره واجتنبوا نواهيه ـ يتمعون فى جنات تجرى من تحتها الأنهار كما قال : « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ » الآية .

(ادخلوها بسلام آمنين) أى ويقال لهم : ادخلوها وأنتم سالمون من الآفات والمنغصات ، آمنون من سلب تلك النعم التى أنعم بها ربكم عليكم وأكرمكم بها ولا تخافون إخراجا ولا فناء ولا زوالا .

(ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين) أى وأخرجنا مافى صدور هؤلاء المتقين الذين ذكرت صفتهم ـ من حقد وضغينة بعضهم لبعض .

روى القاسم عن أبى أمامة قال : يدخل أهل الجنة الجنةَ على مافى صدورهم فى الدنيا من الشحناء والضغائن ، حتى إذا توافَوْا وتقابلوا نزع الله مافى صدورهم فى الدنيا من غل ثم قرأ : (ونزعنا مافى صدورهم من غل) .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن على كرم الله وجهه أنه قال لابن طلحة : إنى لأرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله تعالى (ونزعنا مافى صدورهم) الآية. فقال رجل من همدان : إن الله سبحانه أعدل من ذلك ، فصاح علىّ صيحة تداعى لها القصر ، وقال : فمن إذاً إن لم نكن نحن أولئك .

والخلاصة — إن الله طهر قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات فى الجنة ونزع منها كل غل وألقى فيها التوادّ والتحاب والتصافى ، والمراد بكونهم على سرر متقابلين أنهم فى رفعة وكرامة ، وقد روى أن الأسرّة تدور بهم حيثما داروا فهم فى جميع أحوالهم متقابلين لاينظر بعضهم إلى أقفية بعض ، وهم يجتمعون ويتنادمون ويتزاورون ويتواصلون .

(لا يمسهم فيها نصب) أى لا يلحقهم فى تلك الجنات مشقة ولا أذى ، لأنهم ليسوا فى حاجة إلى ما يوجب ذلك من السعى فى تحصيل ما لابدّ لهم منه ، لحصول كل ما يشتهون من غير مزاولة عمل .

روى الشيخان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله أمرنى أن أبشر خديجة ببيت فى الجنة من قصب لاصخب فيه ولا نصب .

(وماهم منها بمخرجين) أى وهم خالدون فيها أبدا لا يبرحونها ، يشعرون بلذة النعيم ودوامه ، فهم فى خلود بلا زوال ، وكمال بلا نقصان ، وفوز بلا حرمان .

والخلاصة — إن المسرة بالنعيم لاتتم إلا إذا توافرت أمور :

(١) أن يكون مقرونا بالتعظيم ، وإلى ذلك الإشارة بقوله : (ادخلوها بسلام آمنين) .

(٢) أن يكون خالصا من شوائب الضرر ، روحانية كانت كالحقد والحسد والغضب ، وإلى ذلك الإشارة بقوله (ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا) أو جسمانية كالإعياء والتعب ، وإلى ذلك الإشارة بقوله (لا يمسهم فيها نصب) .

(٣) أن يكون دائما غير قابل للزوال ، وإلى ذلك الإشارة بقوله (وماهم منها بمخرجين) .

نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠) وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ

إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاَءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦) وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلاَءِ ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ؟ (٧٠) قَالَ هَؤُلاَءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (٧٩) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) .

شرح المفردات

تقول : أنبأت القوم إنباء ونبأتهم تنبئة: إذا أخبرتهم، والأفصح فى كلمة الضيف : ألا تثنى ولا تجمع حين تستعمل للمثنى والجمع والمؤنث بل تستعمل بلفظ واحد لكل ذلك ، والوجل : اضطراب النفس لخوفها من توقع مكروه يصيبها ، عليم : أى ذى علم كثير ، بالحق : أى بالأمر المحقق الذى لاشك فى وقوعه ، وقنط من كذا : أى يئس من حصوله ، والضالون : الكفار الذين لايعرفون كمال قدرته تعالى وسعة رحمته ، وخطبكم : أى أمركم وشأنكم الذى لأجله أرسلتم، قدرنا : أى قضينا وكتبنا ، يقال قضى الله عليه كذا وقدره عليه : أى جعله على مقدار الكفاية فى الخير والشر ، وقدر الله الأقوات : جعلها على مقدار الحاجة ، والغابرين : أى الباقين مع الكفار ليهلكوا معهم ، وأصله من الغبرة وهى بقية اللبن فى الضرع ، منكرون : أى لا أعرفكم ولا أعرف من أىّ الأقوام أنتم ؟ ولأى غرض دخلتم علىّ ؟ ويمترون : أى يشكون ويكذبون به ، فأسر بأهلك : أى اذهب بهم ليلا ، والقطع من الليل : الطائفة منه كما قال :

افتحى الباب وانظرى فى النجوم كم علينا من قطع ليل بهيم

اتبع أدبارهم : أى كن على إثرهم لتسرع بهم وتطلع على أحوالهم ، وقضينا : أى أوحينا ، ودابرهم : آخرهم ، ومقطوع : أى مهلك مستأصل ، مصبحين : أى فى وقت الصباح، والمدينة : هى سَذُوم (بالذال المعجمة) مدينة قوم لوط، والاستبشار : إظهار السرور ، والفضيحة : إظهار ما يوجب العار ، والخزى : الذل والهوان ، والعَمْر والعُمْر (بالفتح والضم) : الحياة ، وهو حين القسم بالفتح لاغير ، سكرتهم ، غوايتهم، يعمهون : أى يتحيرون ، والصيحة : الصاعقة ، وكل شىء أهلك به قوم فهو صيحة وصاعقة أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج ، ومشرقين : أى داخلين فى الشروق وهو بزوغ الشمس ، والسجيل : الطين المتحجر وهو معرّب لاعربى فى المشهور ،

المتوسمين : أى المتفرسين الذين يتثبتون فى نظرهم ليعرفوا سمة الشىء وعلامته ، يقال توسمت فى فلان خيرا : أى ظهرت لى منه علاماته ، قال عبد الله بن رواحة يمدح النبى صلى الله عليه وسلم :

إنى توسمت فيك الخير أعرفه والله يعـلم أنى ثابت البصر

لبسبيل مقيم : أى لبطريق واضح معلم ليس بخفى ولا زائل ، وأصحاب الأيكة : قوم شعيب عليه السلام ، والأيكة : الغيضة ، وهى الشجر الملتف بعضه على بعض وقد كانوا فى مكان كثير الأشجار كثيف الغبار ، لبإمام مبين : أى لبطريق واضح وأصل الإمام مايؤتم به سمى به الطريق لأنه يُؤتم ويتبع ، وأصحاب الحجر: هم ثمود ، والحجر: واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه ، ويسمى كل مكان أحيط بالحجارة حجرا ومنه حجر الـكعبة ، وآياتنا : هى الناقة وفيها آيات كثيرة كعظم خلقها وكثرة لبنها وكثرة شربها ، والإمام : ما يؤتم به ومن جملة ذلك الطريق التى تسلك .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أوعد به أهل الغواية فى يوم القيامة من دخول جهنم ، وذكر أنها دركات لأولئك الغاوين على حسب اختلاف أحوالهم بمقدار ما دنسوا به أنفسهم من اتخاذ الأنداد والشركاء وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ثم أعقبه بذكر ما أعد لعباده المؤمنين من الجنات والعيون والنعيم المقيم والراحة التى لا نصب بعدها ولا تعب ، والجلوس بعضهم مع بعض يتنادمون ويتجاذبون أطراف الأحاديث وهم فى سرور وحبور على سرر متقابلين ــ أردف ذلك بفذلـكة وخلاصة لما سبق ، فأمر نبيه أن يبلغ عباده أنه غفار لذنوب من تابوا وأنابوا إلى ربهم ، وأن عذابه مؤلم لمن أصروا على المعاصى ولم يتوبوا منها ، ثم فصل ذلك الوعد والوعيد فذكر البشارة لإبراهيم بغلام عليم ، وذكر إهلاك قوم لوط بما اجترحوا من كبرى الموبقات ، وفظيع الجنايات ، بفعلهم فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، حتى

صاروا كأمس الدابر وأصبحوا أثرا بعد عين ، وإهلاك أصحاب الأيكة قوم شعيب جزاء ظلمهم بشركهم بالله ونقصهم للمكاييل والموازين ، فانتقم الله منهم بعذاب يوم الظلة ، وإهلاك أصحاب الحجر وهم ثمود الذين كذبوا صالحا وكانوا ذوى حول وطول وغنى ومال وقوة و بطش ، فأعرضوا عن آيات ربهم حينما جاءتهم على يدى رسوله ، فأخذتهم الصيحة وقت الصباح ولم يغن عنهم مالهم من دون الله شيئا حين جاء أمره .

أخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق عطاء بن أبى رباح عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال : «طلع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الباب الذى يدخل منه بنو شيبة فقال : (ألا تراكم تضحكون) ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القهقرى فقال : إنى لما خرجت من الباب جاء جبريل عليه السلام فقال يا محمد إن الله يقول لك : لِمَ تُقْنِطُ عبادى (نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم. وأن عذابى هو العذاب الأليم)» .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه قال فى قوله (نبئ عبادى) الآية : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام ، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لبخع نفسه » .

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله سبحانه خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة ، فلو يعلم الكافر كل الذى عنده من رحمة لم ييأس من الرحمة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله تعالى من العذاب لم يأمن من النار » .

الإيضاح

(نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم) أى أخبر أيها الرسول عبادى أنى أنا الذى يستر ذنوبهم إذا تابوا منها وأنابوا بترك فضيحتهم بها وعقوبتهم عليها ،

الرحيم بهم أن أعذبهم بعد توبتهم منها . وفى قوله (نبئ عبادى) إيماء إلى أنه ينبئ كل من كان معترفا بعبوديته ، فيشمل ذلك المؤمن المطيع والعاصى ، وغير خاف مافى ذلك من تغليب جانب الرحمة من قبله تعالى على جانب العقاب .

(وأن عذابى هو العذاب الأليم) أى وأخبرهم أيضا بأن عذابى لمن أصر على معاصىّ وأقام عليها ولم يتب منها - هو العذاب المؤلم الموجع الذى لا يشبهه عذاب آخر، وفى هـذا تهديد شديد وتحذير لخلقه أن يقدموا على معاصيه ، ومن الأمر لهم بالإنابة والتوبة .

والخلاصة — إن الله جمع لعباده بين التبشير والتحذير ليكونوا على قدمى الرجاء والخوف وحال الأنس والهيبة .

ثم ذكر سبحانه قصصا تقدم مثله بأسلوب آخر فى سورة هود وبدأ بقصص إبراهيم عليه السلام فقال :

(ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما) أى أخبر عبادى عن ضيوف إبراهيم خليل الرحمن وهم الملائكة الذين أرسلهم الله إلى قوم لوط ليستأصلوا شأفتهم ويبيدوهم على ظلمهم ، فقالوا حين دخلوا عليه سلاما : أى سلمت من الآفات والآلام سلاما .

(قال إنا منكم وجلون) أى قال إبراهيم للضيف : إنا خائفون منكم ، لأنهم دخلوا عليه بلا إذن وفى وقت لا يجىء فى مثله طارق ، أو لأنه حين قرّب إليهم العجل الحنيذ لم يأكلوا منه ، والضيف إذا لم يأكل مما يقدم له من الطعام يظن أنه لم يأت لخير ، ويؤيد هذا قوله فى سورة هود : « فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَاتَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً » .

(قالوا لا توجل) أى قال الضيف لإبراهيم : لا تخف ولا يجم حول ساحتك الحزن والهلع .

ثم علل النهى عن الوجل بقوله :

(إنا نبشرك بغلام عليم) أى إنا جئناك بالبشرى بغلام ذى علم وفطنة وفهم لدين الله ، وسيكون له شأن لأنه سيصير نبيا .

ونحو الآية قوله : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا » .

ثم قال إبراهيم متعجبا من مجىء ولد من شيخ وعجوز :

(أبشرتمونى على أن مسنى الكبر ؟) أى أبشرتمونى بذلك مع مس الكبر وتأثيره فىّ ، وتلك حال تنافى هذه البشرى .

(فبم تبشرون) أى فبأى أعجوبة تبشرون ؟ إذ لاسبيل فى العادة إلى مثل ذلك ، وكأنه عليه السلام أراد أن يعرف : أيُعْطَى هذا الولد مع بقائه على حاله من الشيخوخة التامة ، أو يُرْجع شابا ثم يعطى الولد ، لما جرت به العادة من أن الولد لا يكون إلا حين الشباب .

فأجابوه مؤكدين ما بشروه به تحقيقا لما قالوا وليكون بشارة بعد بشارة .

(قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين) أى قال ضيف إبراهيم له : بشرناك بما يكون حقا ، وإنا لنعلم أن الله قد وهب لك غلاما ، فلا تكن من الذين يقنطون من فضل الله فييأسوا من خرق العادة ، بل أبشر بما بشرناك به واقبل البشرى .

والخلاصة — إنه عليه السلام استعظم نعمة الله عليه فاستفهم هذا الاستفهام التعجبى المبنى على السنن التى أجراها الله بين عباده ، لا أنه استبعد ذلك على قدرة الله ، فهو أجلّ من ذلك قدرا ، ويؤيد هذا جوابه عليه السلام .

(قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) أى قال إبراهيم للضيف : لاييأس من رحمة الله إلا من أخطأ سبيل الصواب ، وغفل عن رجاء الله الذى لايخيب من رجاه ، فضلّ بذلك عن الرأى القيم ، وهذا كقول يعقوب : « لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » .

وخلاصة مقاله — إنه نفى القنوط عن نفسه على أتم وجه ، فكأنه قال : ليس بى قنوط من رحمته تعالى ، لكن حالى تنافى فيض تلك النعم الجليلة التى غمرنى بها ، وتوالى المكرمات التى شملت آل هذا البيت .

وبعد أن تحقق عليه السلام مصداق هذه البشرى ورأى أنهم أتوا مختفين على غير ما عهد عليه ملك الوحى ، سألهم عن أمرهم ليزول عنه الوجل .

(قال فما خطبكم أيها المرسلون) أى قال لهم : ما الأمر العظيم الذى جئتم لأجله سوى البشرى ، وكأنه عليه السلام فهم من مجرى حديثهم فى أثناء الحوار أن ليست هذه البشرى هى المقصودة ، بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا لأنهم كانوا عددا والبشارة لاتحتاج إلى مثل هذا العدد ، ومن ثم اكتفى بالواحد فى بشارة زكريا ومريم عليهما السلام ؛ وأيضا لو كانت البشارة هى المقصودة لابتدءوا بها ، فأجابوه .

(قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) أى قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين من قوم لوط ، واكتفوا بهذا القدر من الجواب ، لأن إبراهيم يعلم أن الملائكة إذا أرسلوا إلى المجرمين كان ذلك لهلاكهم وإبادتهم . ومما يرشد أن يفهم هذا الفهم قولهم .

(إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين) أى إلا أتباع لوط فى الدين فلن نهلكهم بل ننجيهم من العذاب الذى أمرنا أن نعذب به قوم لوط .

(إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين) أى لانهلك آل لوط وأتباعه إلا امرأته فقد قضى الله أنها من الباقين مع الكفرة ثم هى مهلكة بعد ذلك معهم ، وقد أضاف الملائكة هذا التقدير إلى أنفسهم مع أنه لله تعالى ، بيانا لمزيد قربهم من ربهم واختصاصهم به تعالى كما يقول خاصة الملك : دبرنا كذا وأمرنا بكذا ، والمدبر الآمر هو الملك .

وبعد أن بشروا إبراهيم عليه السلام بالولد وأخبروه بأنهم مرسلون بعذاب قوم مجرمين — ذهبوا إلى لوط وآله كما قال سبحانه .

(فلما جاء آل لوط المرسلون . قال إنكم قوم منكرون) أى فلما خرج المرسلون من عند إبراهيم وجاءوا قرية لوط أنكرهم لوط ولم يعرفهم وقال لهم : من أى الأقوام أنتم ، ولأى غرض جئتم ؟ وإنى أخاف أن تمسونى بمكروه .

ونحو الآية قوله : « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً »

وإنما قال هذه المقالة ، لأنه لم يشاهد من المرسلين حين مقاساة الشدائد ومعاناة المكايد من قومه الذين يريدون بهم ما يريدون – إعانة ولا مساعدة فيما يأتى وما يذر حين تجشم الأهوال فى تخليصهم فأنكر خذلانهم له وتركهم نصره حين المضايقة التى حلت به بسببهم حتى اضطر إلى أن يقول : « لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ » كما جاء فى سورة هود .

(بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) أى قال له الرسل : ما جئناك بما خطر ببالك من المكروه ، بل بما فيه سرورك وهو عذابهم الذى كنت تحذرهم منه وهم يكذبونك فيه قبل مجيئه ، فأنى لك بعد هذا أن يعتريك مساءة وضيق ذرع ؟ .

وخلاصة ما أرادوا أن يقولوا – ماخذلناك وما خلينا بينك وبينهم ، بل جئناك بما يدمرهم ويهلكهم من العذاب الذى كنت تتوعدهم به وهم يكذبونك .

واختاروا هذا الأسلوب ولم يقولوا جئناك بعذابهم لإفادة ذلك شيئين : تحقق عذابهم وتحقق صدقه عليه السلام بعد أن كابد منهم كثيرا من الإنكار والتكذيب .

(وأتيناك بالحق وإنا لصادقون) أى وجئناك بالأمر المحقق المتيقن الذى لامجال فيه للامتراء والشك وهو العذاب الذى كتب وقدر لقوم لوط ، وإنا لصادقون فيما أخبرناك به .

ثم شرعوا يرتبون له مبادئ النجاة قبل حلول العذاب بقومه فقالوا له :

(فأسر بأهلك بقطع من الليل) أى فسر بأهلك ببقية من الليل ، وأهله على ماروى هم بنتاه .

(واتبع أدبارهم) أى وكن من وراء أهلك الذين تسرى بهم ، وعلى إثرهم لتذود عنهم وتسرع بهم وتراقب أحوالهم حتى لايتخلف منهم أحـد لغرض فيصيبه العذاب .

(ولا يلتفت منكم أحد) فيرى ماينزل بقومه فيرقّ قلبه لهم ، وليوطن نفسه على الهجرة ويطيب نفسا بالانتقال إلى المسكن الجديد ، ثم أكد هذا النهى بقوله :

(وامضوا حيث تؤمرون) أى وامضوا حيث يأمركم الله غير ملتفتين إلى ماوراءكم كالذى يتحسر على مفارقة وطنه ، فلا يزال يلوى له أخادعه كما قال أبو تمام :

تلفتُّ نحو الحىّ حتى وجدتُنى وجِعت من الإصغاء ليتاً وأَخْدَعا

والخلاصة — إنهم أمروا بمواصلة السير ونهوا عن التوانى والتوقف ، ليكون ذلك أقطع للعوائق ، وأحق بالإسراع للوصول إلى المقصد الحقيقى وهو بلاد الشام .

(وقضينا إليه ذلك الأمر) أى وأوحينا إليه أن ذلك الأمر مقضى مبتوت فيه ؛ ثم فصل ذلك الأمر فقال :

(أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) أى إن آخر قومك وأولهم مجذوذ مستأصل صباح ليلتهم ولا يبقى منهم أحد ، ونحو الآية قوله : « فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الذِينَ ظَلَمُوا » .

ثم شرع يذكر ماصدر من القوم حين علموا بقدوم الأضياف وما ترتب عليه مما أشير إليه أولا على سبيل الإجمال فقال :

(وجاء أهل المدينة يستبشرون) أى وجاء أهل سذوم حين سمعوا أن ضيفا قد ضافوا لوطا ــ مستبشرين بنزولهم مدينتهم طمعا فى ركوب الفاحشة منهم .

وفى هـذا إيماء إلى فظاعة فعلهم ، إذ هم خالفوا ماجرى به العرف وركّب فى الأذواق السليمة من إكرام الغريب وحسن معاملته ، وقصدوا بهم الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين .

روى أن امرأة لوط أخبرتهم بأنه نزل بلوط ثلاثة من المُرْد مارأينا قط أصبح منهم وجها ولا أحسن شكلا ، فذهبوا إلى دار لوط طالبا لهم مظهرين اغتباطا وسرورا بهم .

ثم أخبر عن مقالة لوط لقومه حين رآهم يقصدون بهم السوء .

(قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون) أى قال لوط لقومه : إن هؤلاء الذين جئتموهم تريدون منهم الفاحشة ضيفى ، وحق على الرجل إكرام ضيفه فلا تفضحونى فيهم وأكرمونى بترك التعرض لهم بمكروه .

ثم زاد النهى توكيدا بقوله :

(واتقوا الله ولا تخزون) أى وخافوا الله فىّ وفى أنفسكم أن يحل بكم عقابه ، ولا تهينونى فيهم بالتعرض لهم بالسوء ، وهذه الجملة آكد فى الغرض من سابقتها ، إذ التعرض للجار بعد حمايته والذب عنه أجلب للعار ، ومن ثم عبر عن لجاجهم ومجاهرتهم بمخالفته بالخزى وأمرهم بتقوى الله فى ذلك .

ثم أبانوا له أنه السبب فى الفضيحة وفى هذا الخزى .

(قالوا أو لم ننهك عن العالمين ؟) أى قال قومه له : أو لم ننهك أن تضيف أحدا من العالمين أو تؤويه فى قريتنا ، إذ هم كانوا يتعرضون لكل غريب بالسوء ، وكان لوط ينهاهم عن ذلك على قدر حوله وقوته ويحول بينهم و بين من يعرضون له ، وكانوا قد نهوه عن التعرض لهم فى مثل ذلك .

وخلاصة مقالهم — إن ماذكرت من الخزى والفضيحة أنت مصدره والجالب له ، فلولا تعرضك لنا ما أصابك ما أصابك .

ولما رآهم متمادين فى غيهم ، لايرعوون عن غوايتهم ولا يقلعون عما هم عليه .

(قال إن هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين) أى قال لوط لقومه : تزوجوا النساء ولا تفعلوا ماقد حرم الله عليكم من إتيان الرجال إن كنتم فاعلين ما آمركم به ، منتهين إلى أمرى ، وقد سمى نساء قومه بناته ، لأن رسول الأمة كالأب لهم كما قال تعالى : « النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » .

ثم أبان له الرسل أنه لا أمل فى ارعوائهم عن غيهم فقالوا :

(لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) أى قالت الملائكة للوط : وحياتك أيها الرسول إن قومك لفى ضلالتهم التى جعلتهم حيارى ولا يعرفون ما أحاط بهم من البلاء ، ولا ماذا يصيبهم من العذاب المنتظر ، لما أصابهم من عمى البصيرة فهم لايميزون الخطأ من الصواب ، ولا الحسن من القبيح .

ثم ذكر عاقبة أمرهم فقال :

(فأخذتهم الصيحة مشرقين) أى فنزل بهم العذاب المنتظر وأخذتهم الصاعقة وقت الشروق ، وكان ابتداؤها من الصبح وانتهاؤها حين الشروق ، ومن ثم قال أوّلا مصبحين وقال هنا مشرقين ، وأخذ الصيحة قهرها لهم وتمكنها منهم ومن ثم يقال للأسير أخيذ .

ثم بين كيفية أخذها لهم ولقريتهم فقال :

(فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) أى فجعلنا عالى المدينة وهو ما على وجه الأرض سافلها فانقلبت عليهم وأمطرنا عليهم أثناء ذلك حجارة من طين متحجر ، وقد تقدم ذكر ذلك فى سورة هود .

وخلاصة ذلك — إنه تعالى أرسل عليهم ثلاثة ألوان من العذاب .

(١) الصيحة المنكرة الهائلة والصوت المفزع المخيف .

(٢) إنه قلب عليهم القرية فجعل عاليها سافلها .

(٣) إنه أمطر عليهم حجارة من سجيل .

ثم ذكر أن فى هذا القصص عبرة لمن اعتبر فقال :

(إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) أى إن فيما فعلناه بقوم لوط من الهلاك والعذاب لدلالات للمفكرين الذين يعتبرون بما يحدث فى الكون من عظات وعبر ، ويستدلون بذلك على مايكون لأهل الكفر والمعاصى من عقاب بئيس بما كانوا يكسبون .

أخرج البخارى فى التاريخ والترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو نعيم

وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى، ثم قرأ: إن فى ذلك لآيات للمتوسمين » .

والفراسة على نوعين :

(١) مايوقعه الله فى قلوب الصلحاء فيعلمون بذلك أحوال الناس بالحدس والظن.

(٢) مايحصل بدلائل التجارب والأخلاق .

وقد صنف الناس فى القديم والحديث كتبا فى ذلك و بعض العلماء يجعلها دليلا يحكم به كما فعل إياس بن معاوية (كان قاضيا ذكيا فى عهد التابعين) .

ثم لفت أنظار أهل مكة إلى الاعتبار بها لو أرادوا فقال :

(وإنها لبسبيل مقيم) أى وإن هـذه المدينة ـ مدينة سدوم ـ التى أصابها ما أصابها من العذاب ـ لبطريق واضح لاتخفى على السالكين ، فآثارها باقية إلى اليوم لم تندثر ولم تخفَ ، فالذين يمرون عليها من الحجاز إلى الشام يشاهدون آثارها كما قال فى الآية الأخرى « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ » .

ثم أيأس من اعتبارهم بها ، إذ هى لايعتبر بها إلا المؤمنون فقال :

(إن فى ذلك لآية للمؤمنين) أى إن فيما فعلناه بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطا وأهله ـ لدلالة جلية للمؤمنين المصدقين بالله ورسله ، إذ هم يعرفون أن ذلك إنما كان انتقاما من الله لأنبيائه من أولئك الجهال الذين عصوا أمر ربهم وكفروا برسله ولم يرعووا عن غيهم وضلالهم بعد إنذارهم ونصحهم .

أما الذين لايؤمنون بالله فيجعلون ذلك حوادث كونية لأسباب فلكية وشؤون أرضية ، جعلت الأرض تنهار لحدوث فراغ فى بعض أجزائها ، كما يشاهد اليوم فى البلاد ذات البراكين من اختفاء بلاد فى باطن الأرض وابتلاع الأرض لها كما حدث فى مدينة مسينا بإيطاليا سنة ١٩٠٩ وظهور جزائر فى وسط المحيطات لم تكن من قبل .

و بعد أن ذكر قصص قوم لوط أتبعه بقصص قوم شعيب عليه السلام فقال :

(وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين) أى وإن أصحاب الأيكة كانوا بجبلتهم ظالمين كفارا ليس لديهم استعداد للإيمان بالله ورسله ، أرسل الله إليهم وإلى أهل مدين شعيبا فكذبوه .

أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيبا » .

(فانتقمنا منهم) جزاء مادنّسوا به أنفسهم من الكفر والمعاصى ، فسلط على أصحاب الأيكة الحر سبعة أيام لايُظِل منه ظِلٌّ ، ولا يمنعهم منه شىء ، ثم أرسل عليهم سحابة فخلوا تحتها يلتمسون الروح منها ، فبعث عليهم منها نارا فاضطرمت عليهم فأكلتهم ، فذلك عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ، وأما أهل مدين فقد أخذتهم الصيحة .

ثم ذكر أنه قد كان من حق قريش أن يعتبروا بهما فقال :

(وإنهما لبإمام مبين) أى وإن مدينة أصحاب الأيكة ومدينة قوم لوط — لبطريق واضح يأتمون به فى سفرهم — ويهتدون به فى مسيرهم .

ثم ذكر سبحانه قصة صالح بقوله :

(ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) أى ولقد كذبت ثمود نبيهم صالحا عليه السلام ، ومن كذب رسولا من رسل الله فكأنما كذب الجميع ، لاتفاق كلمتهم على التوحيد والأصول العامة التى لاتختلف باختلاف الأمم والأزمان .

(وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين) أى وأريناهم حججنا الدالة على نبوة صالح عليه السلام من الناقة وغيرها فأعرضوا عنها ولم يعتبروا بها .

(وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين) من هدمها ونقب اللصوص لها أو تخريب الأعداء لها لقوة أسْرها وبديع إحكامها ، وقد تقدم تفصيل ذلك فى سورة الأعراف .

ثم ذكر ميقات هلاكهم فقال :

(فأخذتهم الصيحة مصبحين) أى فأخذتهم صيحة الهلاك حين كانوا فى ضحوة اليوم الرابع من اليوم الذى أوعدوا فيه بالعذاب كما جاء فى قوله : « وَقِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ » .

(فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى فما دفع عنهم مانزل بهم ما كانوا يكسبون من نحت البيوت وجمع الأموال وكثرة العدد وجمع العُدد ، بل خروا جاثمين هلكى حين حل بهم قضاء الله .

روى البخارى وغيره عن ابن عمر « أن النبى صلى الله عليه وسلم مرّ بالحجر وهو ذاهب إلى تبوك فقنّع رأسه وأسرع براحلته وقال لأصحابه : لاتدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ماأصابهم » .

وأخرج ابن مردويه عنه قال : « نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تبوك بالحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناسُ من مياه الآبار التى كانت تشرب منها ثمود وعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم ، فأمرهم بإهراق القدور وعلف العجين للإبل، ثم ارتحل عن البئر التى كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال : إنى أخشى عليكم أن يصيبكم مثل الذى أصابهم فلا تدخلوا عليهم » .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦) .

شرح المفردات

بالحق : أى بالحكمة والمصلحة ، والساعة يوم القيامة ، والصفح : ترك التثريب واللوم ، والصفح الجميل : ما خلا من العتب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى القصص السالف إهلاك الأمم المكذبة لرسلها وعذابها بشتى أنواع العذاب كفاء مادنسوا به أنفسهم من فظائع الشرك وأنواع المعاصى التى تقوّض دعائم الإخلاص لبارئ النسم وتهد أركان نظم المجتمع : بعبادة الأصنام والأوثان ، وتطفيف للكيل والميزان ، وإتيان الفاحشة التى تشمئز منها النفوس وتنفر منها الأذواق السليمة — أرشد هنا إلى أنهم بعملهم هـذا قد تركوا ما قضت به الحكمة والمصلحة من خلق السموات والأرض لعبادة خالقها وطاعته واستقرار نظم المجتمع على وجه صالح صحيح ، ودأبوا على عبادة غيره من الأصنام والأوثان ، فكان من العدل تطهير الأرض منهم دفعا لشرورهم وإصلاحا لمن يأتى بعدهم .

الإيضاح

(وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) أى وما خلقنا الخلائق مما فى الأرض والسماء وما بينهما إلا بالعدل والإنصاف لابالظلم والجور ، فإهلاكنا للأمم التى كذبت رسلها وقصصنا عليك قصصها ، وتعجيل النقمة لهم لم يكن ظلما بل كان عدلا وحكمة .

وفى هذا إيماء إلى أن ما يصيب غيرهم من المكذبين لك من العذاب فى الآخرة فيه عدل ومصلحة للبشر .

ثم هدد العصاة وتوعدهم فقال :

(وإن الساعة لآتية) أى إن يوم القيامة لآت لاريب فيه ، وحينئذ ينتقم الله ممن يستحق العذاب ويحسن إلى من يستحق الإحسان ، فارض بما يكون لهم من شديد العقاب .

(فاصفح الصفح الجميل) أى فأعرض عنهم إعراضا جميلا واحتمل أذاهم ، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم .

وخلاصة ذلك — خالقهم بخلق حسن، وتأنّ عليهم، واحلم عنهم وأنذرهم وادعهم إلى ربك قبل أن تقاتلهم .

(إن ربك هو الخلاق العليم) أى إن ربك هو الذى خلقهم وخلق كل شىء وهو العليم بهم وبما يأتون وما يذرون ، وهو المدبر لأمورهم والمقدر لها على وجه الحكمة والمصلحة .

وقصارى ذلك — إنه خالقك وخالقهم ، وعليم بأحوالك وأحوالهم ، ولا يخفى عليه شىء مما جرى بينك وبينهم ، فخليق بك أن تكل الأمور إليه ، ليحكم بينك وبينهم ، وقد علم أن الصفح الجميل أولا أولى بهم إلى أن يحكم السيف بينك وبينهم .

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) .

شرح المفردات

المثانى : واحدها مثنى من التثنية وهو التكرير والإعادة ، ومد عينيه إلى مال فلان : اشتهاه وتمناه ، والأزواج : واحدها زوج وهو الصنف ، وخفض الجناح :

يراد به التواضع واللين، وأصل ذلك أن الطائر إذا أراد أن يضم فرخه إليه بسط جناحيه له ، والجناحان من الإنسان : جانباه ، والنذير : المخوّف بعقاب الله من لم يؤمن به ، وعضين : أى أجزاء واحدها عضة من عضيت الشاة جعلتها أعضاء وأقساما ، فاصدع بما تؤمر : أى اجهر به من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارا ، يضيق صدرك : أى ينقبض من الحسرة والحزن ، والساجدين : أى المصلين ، واليقين : الموت وسمى به لأنه أمر متيقن لا يشك فيه .

المعنى الجملى

بعد أن أمر رسوله أن يصبر على أذى قومه وأن يصفح عنهم الصفح الجميل ـ أردف ذلك بذكر ما أولاه من النعم ، وما أغدق عليه من الإحسان ، ليسهل عليه الصفح ، ويكون فيه سلوة له على احتمال الأذى ، فذكر أنه آتاه السبع المثانى ـ الفاتحة ـ والقرآن العظيم الجامع لما فيه هدى البشر وصلاحهم فى دنياهم وآخرتهم .

وبعد أن ذكر له تظاهر نعمه عليه نهاه عن الرغبة فى الدنيا ومد العينين إليها بتمنى ما فيها من متاع ، ونهاه عن الحسرة على الكفار إن لم يؤمنوا بالقرآن وبما جاء به وأمره بالتواضع لفقراء المسلمين ، وبإنذار قومه المشركين بتبليغهم ما أمر به الدين وما نهى عنه ، بالبيان الكافى ، والإعذار الشافى ، وبيان عاقبة أمرهم بتحذيرهم أن يحل بهم ما حل بالمقتسمين ـ اليهود والنصارى ـ الذين جعلوا القرآن أقساما فآمنوا بما وافق التوراة وكفروا بما عدا ذلك ، ويبين لهم أنه سيسألهم ربهم عن جريرة أعمالهم .

ثم أمره أن يعلن ما أمر به من الشرائع ، ولا يلتفت إلى لوم المشركين وتثريبهم له ولا يبال بما سيكون منهم ، فالله تعالى كفاه أمر المستهزئين به وأزال كيدهم ، وإذا ساوره ضيق الصدر من سماع سفههم واستهزائهم كما هو دأب البشر ، فليسبح ربه

وليحمده وليكثر الطاعة له ، فالعبد إذا حزبه أمر نزع إلى طاعة ربه وقد كفل سبحانه أن يكشف عنه ما أهمه .

الإيضاح

(ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) أى ولقد أكرمناك بسبع آيات هى الفاتحة التى تثنى وتكرر فى كل صلاة ، وهذا قول عمر وعلى وابن مسعود لما روى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أم القرآن السبع المثانى التى أعطيتها » أو لأنها قسمت قسمين : ثناء ودعاء ، وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بينى و بين عبدى نصفين » وأكرمناك أيضا بالقرآن العظيم .

وتخصيص الفاتحة بالذكر من بين القرآن الكريم لمزيد فضلها على نحو ما جاء فى قوله تعالى : « وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ » .

و بعد أن عرّف سبحانه رسوله عظيم نعمه عليه فيما يتعلق بالدين ــ نهاه عن الرغبة فى الدنيا فقال :

(لاتمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم) أى لاتمنين أيها الرسول ماجعلنا من زينة الدنيا متاعا للأغنياء من اليهود والنصارى والمشركين ، فإن من وراء ذلك عقابا غليظا .

والخطاب و إن كان موجها إلى النبى صلى الله عليه وسلم ــ تعليم لأمته كما تقدم مثله كثيرا ، يؤيد هذا ما روى أنه أتت من بُصرى وأذرعات سبع قوافل لقُرَيظة والنَّضير فى يوم واحد فيها أنواع من البزّ (الأقمشة) والطيب والجواهر ، فقال المسلمون : لو كانت لنا لتقوّينا بها ولأنفقناها فى سبيل الله .

وخلاصة ذلك ــ لقد أوتيت النعمة العظمى التى إذا قيست بها كل النعم كانت حقيرة ، فقد أوتيت سبع آيات هى خير من السبع القوافل .

(ولا تحزن عليهم) إذ لم يؤمنوا ليقوى بمكانهم الإسلام وينتعش بهم المؤمنون ؛ وقد كان صلى الله عليه وسلم يود أن يؤمن به كل من بعث إليه ، ويتمنى لمزيد شفقته عدم إصرار الكفار على كفرهم .

وبعد أن نهاه عن الالتفات إلى الأغنياء من الكفار أمره بالتواضع لفقراء المسلمين فقال :

(واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) أى وألن جانبك وارفق بمن آمن واتبعك ، ولا تجفُ بهم ولا تغلظ عليهم .

ونحو الآية قوله تعالى : « أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ » وقوله فى صفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ »

ثم بين وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال :

(وقل إنى أنا النذير المبين) أى أنا النذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تماديهم فى غيهم كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها فانتقم الله منهم بإنزال العذاب بهم .

وفى الصحيحين عن أبى موسى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال يا قوم : إنى رأيت الجيش بعينىّ وإنى أنا النذير العريان ، فالنّجاء النّجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مَهَلهم فنجوا ، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق » .

(كما أنزلنا على المقتسمين . الذين جعلوا القرآن عضين) أى ولقد آتيناك سبعا من المثانى كما آتينا من قبلك من اليهود والنصارى التوراة والإنجيل ، وهم الذين اقتسموا القرآن وجزءوه أجزاء فآمنوا ببعضه الذى وافق كتابيهما ، وكفروا ببعضه

وهو ما خالفهما ــ أخرج ذلك البخارى وسعيد بن منصور والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس من طرق عدة .

وبعد أن بين وظيفة الرسول ذكر أن الحساب على الأعمال موكول إلى الله لا إليه فقال :

(فوربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون) أى فلنسألن الكفار جميعا سؤال تأنيب وتوبيخ لهم على ما كانوا يقولون ويفعلون فيما بعثناك به إليهم وفيما دعوناهم إليه من الإقرار بى وبتوحيدى والبراءة من الأنداد والأوثان ، روى أبو جعفر عن الربيع عن أبى العالية فى تفسير الآية قال : يسأل الله العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة عما كانوا يعبدون ، وعماذا أجابوا المرسلين .

وعن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا معاذ إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه ، وعن فُتات الطينة بإصبعه ، فلا أُلفيَنّك يوم القيامة وأحدٌ غيرك أسعد بما آتاك الله منك » .

وبعد أن ذكر أن وظيفته التبليغ شدد عليه فى الجهر به جهد المستطاع فقال :

(فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) أى اجهر بإبلاغ ما أمرت به من الشرائع وواجه به المشركين ، ولا تلتفت إلى ما يقولون ولا تبال بهم ولا تخفهم ، فإن الله كافيكهم وحافظك منهم .

ولما كان هذا الصدع شديدا عليه لكثرة ما يلاقيه من أذى المشركين ذكر أنه حارسه وكالئه منهم فلا يخشى بأسهم فقال :

(إنا كفيناك المستهزئين) أى إنا كفيناك شر المستهزئين الذين كانوا يسخرون منك ومن القرآن ، وهم طائفة من المشركين لهم قوة وشوكة كانوا كثيرى السفاهة والأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين يرونه أو يمر بهم ، أفناهم الله وأبادهم وأزال كيدهم ؛ وقد اختلف فى عدتهم فقوم يقولون هم خمسة : الوليد بن المغيرة والعاص ابن وائل وعدى بن قيس والأسود بن عبد يغوث والأسود بن عبد المطلب ، وقد ماتوا

جميعا بأهون الأسباب ، فتعلق بثوب الوليد سهم فتكبر أن يبعده عنه فأصاب عرقا فى عقبه فمات ، ومات العاص بشوكة فى إِخْمَص قدمه ، وأصاب عدى بن قيس مرض فى أنفه فمات ، وأصيب الأسود بن عبد يغوث بداء وهو قاعد فى أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات (هذه أعراض حمى التيفوس فيغلب أن يكون قد أصيب بها) وعمى الأسود بن عبد المطلب .

وقوم يقولون هم سبعة من أشراف قريش ومشركيها .

ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك فقال :

(الذين يجعلون مع الله إلها آخر) أى هم الذين اتخذوا إلها آخر مع الله يعبدونه .

وفى وصفهم بهـذا الوصف تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وتهوين للخطب عليه ، إذ أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء بمقام النبوة ، بل تعدوه إلى الإشراك بربهم المدبر لأمورهم والمحسن إليهم .

ثم توعدهم على ما كانوا يصنعون فقال :

(فسوف يعلمون) عاقبة أمرهم حين يحل بهم عذاب ربهم ، يوم تجزى كل نفس بمـا عملت ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولـكن عذاب الله شديد .

و بعد أن سلاه بكفاية شرهم ودفع مكرهم ذكر تسلية أخرى له فقال :

(ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بمـا يقولون) من كلمات الشرك والاستهزاء كما هو دأب الطبيعة البشرية حين ينوب الإنسان ما يؤلمه ويحزنه ، أن يرى فى نفسه انقباضا وضيقا فى الصدر وأسى وحسرة على ما حل به .

ثم أمره سبحانه بأن يفزع لـكشف ما نابه من ضيق الصدر إلى تسبيح الله وحمده فقال :

(فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) أى إذا نزل بك الضيق ووجمت نفسك فافزع إلى ربك ، ونزهه عما يقولون ، حامدا له

على توفيقك للحق ، وهدايتك إلى سبيل الرشاد ، وصلّ آناء الليل وأطراف النهار ، فإن فى مناجاة ربك ما يقربك إلى حضرة القدس ، ويسمو بنفسك إلى الملإ الأعلى كما ورد فى الحديث « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، ودم على ما أنت عليه طالبا المزيد من فضله ، حتى يأتيك الموت ، فهناك الجزاء بلا عمل ، وهنا العمل ولا جزاء .

وقصارى ذلك — إنه تعالى أرشده إلى كشف ما يجده فى نفسه من الغم بفعل الطاعات ، والإكثار من العبادات وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر واشتد عليه خطب ، فزع إلى الصلاة ، روى أحمد عن ابن عمار أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «قال الله تعالى يا ابن آدم لاتعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره » .

وقد حكى الله عن أهل النار أنهم يقولون : « لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ . وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ . وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ » .

وفى هذا دلالة على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على المرء ما دام ثابت العقل ، روى البخارى عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صل قائما ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنب » .

اللهم وفقنا لطاعتك ، واهدنا لعبادتك ، واجعلنا من المتقين الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

خلاصة ما اشتملت عليه السورة الكريمة

من الحكم والأحكام

(١) وصف القرآن الكريم .

(٢) الإعراض عن المشركين حتى يحل بهم ريب المنون .

(٣) استهزاء المشركين وإنكارهم لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم لما يرونه من الآيات .

(٤) إقامة الأدلة على وجود الله بما يرونه من الآيات فى خلق السموات والأرض وفى خلق الإنسان .

(٥) عصيان إبليس أمر ربه فى السجود لآدم وذكر الحوار بينه وبين ربه ، وطلبه الإنظار إلى يوم الدين .

(٦) بيان حالى أهل الجنة وأهل النار يوم القيامة .

(٧) قصص بعض الأنبياء وذكر ماأهلك الله به كل أمة من الأمم المكذبة لرسلها .

(٨) بيان أن الحكمة فى خلق السموات والأرض هى عبادة الله وحده وإقامة العدل والنظام فى المجتمع .

(٩) ذكر ما أنعم الله به على نبيه من السبع المثانى والقرآن العظيم .

(١٠) نهى نبيه والمؤمنين عن تمنى زخرف الدنيا وزينتها .

(١١) أمره صلى الله عليه وسلم بخفض الجناح والرفق بمن اتبعه من المؤمنين .

(١٢) التذكير بنعمة الله عليه بإهلاك أعدائه المستهزئين الذين جعلوا القرآن عضين .

(١٣) الأمر بالدعوة للدين جهرا والصدع بها وعدم المبالاة بالمشركين .

(١٤) أمره صلى الله عليه وسلم بالتسبيح والعبادة إذا ضاق صدره باستهزاء المشركين والطعن فيه وفى كتابه الكريم .

سورة النحل

هذه السورة مكية سوى ثلاث آيات من آخرها فإنهن نزلن بين مكة والمدينة منصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحد .

وعدد آيها ثمان وعشرون ومائة .

ووجه ارتباطها بما قبلها أنه لما قال فى السورة السالفة : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » كان ذلك تنبيها إلى حشرهم يوم القيامة وسؤالهم عما فعلوه فى الدنيا ، فقيل : « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ » وأيضا فإن قوله فى آخرها : « وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » شديد الالتئام بقوله أتى أمر الله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) .

شرح المفردات

أتى أمر الله : أى قرب ودنا ، ويقال فى مجرى العادة لما يجب وقوعه قد أتى وقد وقع ، فيقال لمن طلب مساعدة حان مجيئها ، جاءك الغوث ، وأمر الله عذابه للكافرين ، والروح : الوحى وهو قائم فى الدين مقام الروح من الجسد ، فهو محيى القلوب التى أماتها الجهل ، من أمره : أى بأمره ومن أجله ، أنذروا : أى خوفوا ، فاتقون : أى خافوا عقوبتى لمخالفة أمرى وعبادة غيرى .

المعنى الجملى

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخوّف المشركين تارة بعذاب الدنيا من قتل وأسر كما حدث يوم بدر ، وتارة بعذاب الآخرة ، ثم إنهم لما لم يشاهدوا شيئا من ذلك احتجوا بذلك على تكذيبه وطلبوا منه الإتيان بذلك العذاب روى أنه لما نزل قوله تعالى: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ» قال الكافرون حين خلوا إلى شياطينهم إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ماهو كائن ، فلما تأخرت قالوا ما نرى شيئا مما تخوفنا به فنزل قوله تعالى: «اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ» فأشفقوا وانتظروا ، فلما امتدت الأيام قالوا يا محمد ما نرى شيئا مما تخوفنا به فنزل قوله : (أتى أمر الله) فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رءوسهم فنزل قوله : (فلا تستعجلوه) .

الإيضاح

(أتى أمر الله فلا تستعجلوه) أى قرب عذاب المشركين وهلاكهم ، أما إتيانه بالفعل وتحققه فمنوط بحكم الله النافذ وقضائه الغالب على كل شىء ، فهو يأتى فى الحين الذى قدره وقضاه .

ونظم سبحانه المتوقع فى صورة المحقق إيذانا بأنه واجب الوقوع ، والشىء إذا كان بهذه المثابة يسوغ فى عرف التخاطب أن يعد واقعا ، ومعنى قوله فلا تستعجلوه لاتطلبوا حصوله قبل حضور الوقت المقدر فى علمه تعالى .

وفى هذا تهديد من الله لأهل الكفر به وبرسوله وإعلام منه لهم بقرب عذابهم وهلاكهم الذى لابد منه .

(سبحانه وتعالى عما يشركون) أى تبرأ الله تعالى عن الشريك والشفيع الذى يدفع الضر عنكم ، وفى هذا رد لمقالهم حين قالوا : لئن حكم الله علينا بإنزال العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة ـ لتشفعن لنا هذه الأصنام التى نعبدها من دونه .

وخلاصة هذا — إن تلك الجمادات الخسيسة التي جعلتموها شركاء لله وعبدتموها هى أحقر الموجودات وأضعف المخلوقات ، فكيف تجعلونها شريكة لله فى التدبير والشفاعة فى الأرض والسموات .

ثم أجاب عن شبهة لهم إذ قالوا : هب الله قضى على بعض عباده بالشر وعلى آخرين بالخير ، فمن يعرف هذه الأسرار التي لايعلمها إلا هو ؟ فقال :

(ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) أى ينزل سبحانه ملائكته بالوحى إلى من يريد من عباده المصطفين الأخيار ، أن أنذروا عبادى أن إله الخلق واحد لا إله إلا هو ، وأنه لاتنبغى الألوهية إلا له ، ولا يصلح أن يعبد شىء سواه ، فاحذروه وأخلصوا له العبادة ، فإن فى ذلك نجاتكم من الهَلَكَةِ ، وقد جاء ذكر الروح بمعنى الوحى فى قوله: «وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ » وفى قوله : « يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » .

والمراد بقوله من أمره — بيان أن ذلك التنزيل والنزول لايكونان إلا بأمره تعالى كما قال حكاية عن الملائكة : «وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ» وقال : لاَيَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ » وقال : « يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَايُؤْمَرُونَ » وقال : «لاَيَعْصُونَ اللّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَايُؤْمَرُونَ» ففى كل ذلك دليل على أن الملائكة لايقدمون على عمل إلا بأمره تعالى و إذنه .

وفى الآية إيماء إلى أن الوحى من الله إلى أنبيائه لا يكون إلا بوساطة الملائكة ، ويؤيد ذلك قوله : « وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ » فقد بدأ بذكر الملائكة لأنهم هم الذين يتلقون الوحى من الله بلا وساطة ، وذلك الوحى هو الكتب ، وهم يوصلون هـــذا الوحى إلى الأنبياء — لاجرم جاء الترتيب على هذا الوضع .

خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا
دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ
تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ
الْأَنْفُسِ ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ
لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَالَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا
جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ
مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ
وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً
لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢)
وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ، إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ
يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا
وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ
فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِى الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ
بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ
يَهْتَدُونَ (١٦) .

شرح المفردات

أصل النطفة : الماء الصافى و يراد بها هنا مادة التلقيح ، والخصيم : بمعنى المخاصم كالخليط بمعنى المخالط ، والعشير : بمعنى المعاشر والمراد به المنطيق المجادل عن نفسه المنازع للخصوم ، والمبين : المظهر للحجة ، والدفء : ما يستدفأ به من الأكسية ، والمنافع : هى دَرّها وركوبها والحرث بها وحملها للماء ونحو ذلك ، جمال : أى زينة فى أعين الناس وعظمة لديهم ، تريحون : أى تردونها بالعشى من المرعى إلى مراحها يقال أراح الماشية إذا ردها إلى المراح ، تسرحون : أى تخرجونها غدوة من حظائرها ومبيتها إلى مسارحها ومراعيها ، والأثقال : واحدها ثقل وهو متاع المسافر ، وشق الأنفس : مشقتها وتعبها ، القصد : الاستقامة ، يقال سبيل قصد وقاصد إذا أداك إلى مطلوبك ، وجائر : أى مائل عن المحجة منحرف عن الحق ، وتسيمون : أى ترعون يقال أسام الماشية وسوّمها جعلها ترعى ، وذرأ : خلق ، ألوانه : أى أصنافه ، مواخر واحدها ماخرة : أى جارية من مخر الماء الأرض أى شقها ، والميد : الحركة والاضطراب يمينا وشمالا ، وعلامات : أى معالم يستدل بها السابلة من نحو جبل ومنهل ورائحة تراب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه منزه عن الشريك والولد وأنه لا إله إلا هو وأمر بتقواه و إخلاص العبادة له ـ ذكر هنا أدلة التوحيد واتصاف ذاته الكريمة بصفات الجلال والإكرام بأسلوب بديع جمع فيه بين دلالة المصنوع على الصانع والنعمة على المنعم ، ونبه بذلك إلى أن كل واحد من هذا كاف فى صرف المشركين عما هم عليه من الشرك ، وكلما بصرهم طائفة مما يرون و يشاهدون بكتهم على ما يقولون و يفعلون و بين لهم كفرانهم نعمتى الرعاية والهداية ، فاحتج على وجوده بخلق الأجرام الفلكية ،

ثم ثنى بذكر أحوال الإنسان ، ثم ثلث بذكر أحوال الحيوان ، ثم ربع بذكر أحوال النبات ، ثم اختتم القول بذكر أحوال العناصر الأربعة .

الإيضاح

(خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون) أى خلق سبحانه العالم العلوى وهو السموات والعالم السفلى وهو الأرض بما حوت - بالحق أى على نهج تقتضيه الحكمة ولم يخلقهما عبثا ، منفردا بخلقهما لم يشركه فى إنشائهما وإحداثهما شريك ، ولم يعنه على ذلك معين ، تعالى الله عن ذلك ، إذ ليس فى قدرة أحد سواه أن ينشئ السموات والأرض فلا تليق العبادة إلا له .

وبعد أن ذكر أدلة الأكوان ذكر خلق الإنسان فقال :

(خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين) أى خلق الإنسان من نطفة أى من ماء مهين - خلقا عجيبا فى أطوار مختلفة ، ثم أخرجه إلى ضياء الدنيا بعد ما تم خلقه ونفخ فيه الروح فغذاه ونماه ورزقه القوت حتى إذا استقل ودرج نسى الذى خلقه خلقا سويا من ماء مهين ، بل خاصمه فقال : « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ » وعبد ما لا يضر ولا ينفع : « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا » .

(والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) امتن سبحانه على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهى الإبل والبقر والغنم كما تقدم تفصيل ذلك فى سورة الأنعام إذ عدها ثمانية أزواج ، وبما جعل لهم فيها من المنافع من الأصواف والأوبار والأشعار ، لباسا وفراشا ، ومن الألبان شرابا ، ومن الأولاد أكلا .

(ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون) أى ولكم فى هذه الأنعام زينة حين تردونها بالعشى من مسارحها إلى منازلها التى تأوى إليها ، وحين إخراجها من مُراحها إلى مسارحها وخصص هذين الوقتين بالذكر ، لأن الأفنية تتزين بها

ويتجاوب ثُغاؤها ورُغاؤها حين الذهاب والإياب فيعظم أربابها فى أعين الناظرين إليها ، وقدم الإراحة على السرح مع تأخرها فى الوجود ، لأن الجمال فيها أظهر ، وجلب السرور فيها أكمل ، ففيها حضور بعد غيبة وإقبال بعد إدبار على أحسن ما يكون ، إذ تكون ملأى البطون حافلة الضروع .

(وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) أى وهى أيضا تحمل أمتعتكم وأحمالكم من بلد إلى آخر لم تكونوا بالغيه بدونها إلا بكلفة ومشقة وجهد شديد .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ » وقوله : «اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ »

(إن ربكم لرءوف رحيم) ومن ثم أسبغ عليكم نعمه الجليلة ، ويسر لكم الأمور الشاقة العسيرة ، ومن رأفته ورحمته بكم أن خلق لكم الأنعام لمنافعكم ومصالحكم كما قال : «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ؟ » .

(والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) أى وخلق لكم الخيل والبغال والحمير أيضا لتركبوها ، وجعلها لكم زينة تتزينون بها ــ إلى مالكم فيها من منافع أخرى .

(ويخلق ما لا تعلمون) غير هذه الدواب مما يهدى إليه العلم وتستنبطه العقول كالقطر البرية والبحرية والطائرات التى تحمل أمتعتكم وتركبونها من بلد إلى آخر ومن قطر إلى قطر ، والمطاود الهوائية التى تسير فى الجو والغواصات التى تجرى تحت الماء إلى نحو أولئك مما تعجبون منه ويقوم مقام الخيل والبغال والحمير فى الركوب والزينة .

وبعد أن شرح سبحانه دلائل وحدانيته أرشد إلى أنه كفيل ببيان الطريق السوى لمن أراده فقال :

(وعلى الله قصد السبيل) أى وعلى الله بيان الطريق المستقيم الموصل من سلكه إلى الحق بنصب الأدلة وإرسال الرسل عليهم السلام وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها .

ونحو الآية قوله : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » وقوله : « هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ » .

(ومنها جائر) أى ومن السبل سبيل جائر عن الاستقامة معوجّ زائغ عن الحق ؛ فالسبيل القاصد هو الإسلام، والجائر منها هو غيره من الأديان الأخرى سماوية كانت أو أرضية .

وخلاصة هذا — إن ثمة طرقا تسلك للوصول إلى الله ، وليس يصل إليه منها إلا الطريق الحق وهى الطريق التى شرعها ورضيها وأمر بها وهى طريق الإسلام له والإخبات إليه وحده كما أرشد إلى ذلك بقوله : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ . مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ » وما عداها فهو جائر ، وعلى الله بيان ذلك ليهتدى إليه الناس ويبتعدوا عن سواه .

ثم أخبر سبحانه بأن الهداية والضلال بقدرته ومشيئته فقال .

(ولو شاء لهداكم أجمعين) أى ولوشاء سبحانه لجعلكم كالنمل والنحل فى حياتكم الاجتماعية أو جعلكم كالملائكة مفطورين على العبادة وتقوى الله ، فلا تتجه نفوسكم إلى المعصية ولا تسعى إلى الشر ، ولكنه شاء أن يجعلكم تعملون أعمالكم باختياركم وتسعون إليها بعد بحثها وفحصها من سائر وجوهها ثم ترجحون منها ما تميل إليه نفوسكم وترون فيه الفائدة لكم كما قال عز من قائل : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ

ـ طريقى الخير والشر ـ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُوراً » وقد تقدم إيضاح هذا عند قوله : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً » وعند قوله : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » .

وبعد أن ذكر نعمته عليهم بتسخير الدواب والأنعام ـ شرع يذكر نعمته عليهم فى إنزال المطر فقال :

(هو الذى أنزل من السماء ماء لـكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون) أى إن الذى خلق لـكم الأنعام والخيل وسائر البهائم لمنافعكم ومصالحـكم ـ هو الذى أنزل المطر من السماء عذبا زلالا تشربون منه وتسقون أشجاركم ونباتكم التى تسيمون فيها أنعامكم وفيها ترعى .

(ينبت لـكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات) أى ينبت لـكم بالماء الذى أنزله من السماء زرعكم وزيتونكم ونخيلـكم وأعنابكم ومن كل الثمرات غير ذلك ـ أرزاقا لـكم وأقواتا نعمة منه عليكم وحجة على من كفر به .

(إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) أى إن فيما ذكر من إنزال المـاء وغيره لأدلة وحججاً على أنه لا إله إلا هو لقوم يعتبرون مواعظ الله ويتفكرون فيها حتى تطمئن قلوبهم بها وينبلج نور الإيمان فيها ، فيضىء أفئدتهم ويزكى نفوسهم ، فمن فـكر فى أن الحبة والنواة تقع فى الأرض وتصل إليها نداوة منها تنفذ فيها فينشق أسفلها فيخرج منه عروق تنبسط فى الأرض ويخرج منها ساق ينمو وتخرج فيه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الأشكال والألوان والخواص والطباع ـ علم أن من هـذه آثاره لايمكن أن يشبهه شىء فى صفات كماله فضلا عن أن يشاركه فى أخص صفاته وهى الألوهية واستحقاق العبادة .

ولله در القائل :

تأمل فى رياض الورد وانظر إلى آثار ما صنع المليـــك
عيون من لجين شاخصات على أهـدابها ذهب سبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

(وسخر لـكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) أى ومن نعمه تعالى عليكم مضافة إلى النعم التى سلف ذكرها ـ أن سخر لـكم الليل والنهار يتعاقبان خِلْفَة لمنامكم واستراحتكم وتصرفكم فى معايشكم وسعيكم فى مصالحـكم ، وسخر لـكم الشمس والقمر يدأبان فى سيرهما و إنارتهما أصالة وخلافة ، وأدائهما مانيط بهما من تربية الأشجار والزرع و إنضاج الثمرات وتلوينها إلى نحو ذلك من الآثار والمنافع التى ربطها سبحانه بوجودهما ، وبهما يعرف عدد السنين والشهور ، وفى ذلك صلاح معايشكم ، وسخر لـكم النجوم بأمره تجرى فى أفلاكها بحركة مقدرة لاتزيد ولا تنقص ، لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) أى إن فى ذلك التسخير لدلالات واضحات لقوم يعقلون حجج الله و يفهمون ما نبههم إليه بها .

وعبر هنا بالعقل وفى خاتمة الآية السالفة بالتفكر ، من قِبَل أن الآثار العلوية متعددة ، ودلالة مافيها من عظيم القدرة والعلم والحـكمة على الوحدانية ظاهرة لاتحتاج إلا إلى العقل من غير تفكر ولا تأمل ، بل تدرك بالبديهة ، بخلاف الآثار السفلية من الزرع والنخيل والأعناب فهى تحتاج فى دلالتها على وجود الصانع إلى فـكر وتدبر ونظر شديد .

(وما ذرأ لـكم فى الأرض مختلفا ألوانه) أى وما خلق لـكم فى الأرض من عجائب الأمور ومختلف الأشياء من معادن ونبات وحيوان على اختلاف أجناسها وأشكالها ومنافعها وخواصها .

(إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون) آلاء الله ونعمه فيشكرونه على ما أنعم ويخبتون إليه على ما تفضل به وأحسن .

وبعد أن ذكر أنواع النعم فى البر شرع يفصل نعمه فى البحر فقال :

(وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا) أى وهو الذى سخر لكم البحر ـ الماء الملح والعذب ـ لتأكلوا منه سمكا تصطادونه .

وفى وصفه بالطراوة تنبيه إلى أنه ينبغى المسارعة إلى أكله ، لأنه يسرع إليه الفساد والتغير ، وقد أثبت الطب أن تناوله بعد ذهاب طراوته من أضر الأشياء ، فسبحان الخبير بخلقه ومعرفة ما يضر استعماله وما ينفع ، وفيه أيضا إيماء إلى كمال قدرته تعالى فى خلقه العذب الطرى فى الماء المر الذى لا يشرب .

وقد كره العلماء أكل الطافى منه على وجه الماء وهو الذى يموت حتف أنفه فى الماء فيطفو على وجهه لحديث جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ما نضب عنه الماء فكلوا ، وما لفظه الله فكلوا ، وما طفا فلا تأكلوا » فالمراد من ميتة البحر فى الحديث « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » ما لفظه لا ما مات فيه من غير آفة .

(وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) كاللؤلؤ المخلوق فى صدفه العائش فى البحار ولاسيما المحيط الهندى ، والمرجان الذى ينبت فى قيعانها ، وتوجد حقول من المرجان فى البحر الأبيض المتوسط أمام تونس والجزائر ، متى تم ينعها حصدتها الدولة الفرنسية وباعتها للمسلمين وهم لا يعلمون شيئا من أمرها ، وكأنهم لم يقرءوا القرآن وكأنهم لم يخلقوا فى هذه الأرض ، وكأنهم يقولون : ربنا لا نستخرج ، بل نشترى من المستخرجين من الأرض ، وكأنهم ليسوا مخاطبين بالاستخراج المباح ، وبذا حرموا على أنفسهم ما أباحه الله لهم ، وقد بلغ ما استخرج من المرجان سنة ١٨٨٦م ٧٧٨ ألف كيلو جرام ثمنها خمسة ملايين وسبعمائة وخمسون ألف فرنك .

(وترى الفلك مواخر فيه) أى وترى السفن جوارى فيه تشقه بحيزومها ومقدمها مقبلة مدبرة من قطر إلى قطر ومن بلد إلى آخر ، ومن إقليم إلى إقليم لجلب ما هناك إلى هنا ، وما هنا إلى هناك ومن ثم قال :

(ولتبتغوا من فضله) أى ولتطلبوا فضل الله ورزقه بركوبه للتجارة .

(ولعلكم تشكرون) أى ولتشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم ، إذجعل ركوب البحر مع كونه مظنة للهلاك سببا للانتفاع وحصول المعاش مع عدم الحاجة إلى الحل والترحال والاستراحة والسكون ، ولله در القائل :

وإنا لفى الدنيا كركب سفينة   نظن وقوفا والزمان بنا يسرى

(وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم) أى وألقى فى الأرض جبالا ثوابت لتقر ولا تضطرب بما عليها من الحيوان ، فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك كما قال : « وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا » وما الأرض إلا كسفينة على وجه الماء ، فإذا لم يكن فيها أجرام ثقيلة تضطرب وتميل من جانب إلى جانب بأدنى الأسباب ، وإذا وضعت فيها أجرام ثقيلة تستقر على حال واحدة ، فكذا الأرض لولم يكن عليها هذه الجبال لاضطربت وقد تقدم إيضاح هذا وسيأتى بعد .

(وأنهارا) أى وجعل فيها أنهارا تجرى من مكان إلى آخر رزقا للعباد ، فهى تنبع فى مواضع وهى رزق لأهل مواضع أخرى ، فهى تقطع البقاع والبرارى وتخترق الجبال والآكام حتى تصل إلى البلاد التى سخر لأهلها أن تنتفع بها كما يشاهد فى نهر النيل ، إذ ينبع من أواسط أفريقية ويمر بجبال ووهاد فى السودان ويستفيد منه الفائدة الكبرى أهل مصر دون سواها ، وكل ذلك بتقدير اللطيف الخبير .

(وسبلا) أى وكذلك جعل فيها سبلا أى طرقا نسلك فيها من بلاد إلى أخرى ، وقد تحدث ثلمة فى الجبل لتكون ممرا وطريقا كما قال تعالى فى وصف الجبال : « وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً » الآية .

(لعلكم تهتدون) بتلك السبل إلى ما تريدون فلا تضلون .

(وعلامات) أى وجعل فيها علامات أى دلائل يهتدى بها السارى من جبال كبار وآكام صغار ونحوذلك حتى إذا ضل الطريق كانت عونا له وهدته إلى السبيل السوى فى البر أو فى البحر .

(وبالنجم هم يهتدون) بالليل فى البرارى أو فى البحار ، وفى الآية إيماء إلى أن مراعاة النجوم أصل فى معرفة الأوقات والطرق والقبلة ، ويحسن أن نتعلم من علم الفلك ما يفيد تلك المعرفة .

قال قتادة : إنما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء : لتكون زينة للسماء ، ومعالم للطرق ، ورجوما للشياطين ، فمن قال غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به .

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ ؟ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لاَ جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) .

شرح المفردات

المراد بمن يخلق : الله سبحانه وتعالى ، ومن لا يخلق : الملائكة وعيسى والأصنام ، وما يشعرون : أى لا يعلمون ، وأيان : كمتى كلمتان تدلان على الزمن ، لا جرم : أى حقا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الدلائل على وجود الإله القادر الحكيم على أحسن ترتيب وأكمل نظام ، وكان فى ذلك تفصيل وإيضاح لأنواع النعم ووجوه الإحسان — قفى على ذلك بتبكيت الكفار وإبطال لشركهم وعبادتهم غير الله من الأصنام والأوثان ،

لما يلزم ذلك من المشابهة بينه تعالى و بينها ، ثم أردف ذلك ببيان أن لهذا الخالق نعما لاتحصى على عباده ، وأنهم مهما بالغوا فى الشكر واجتهدوا فى العبادة فليسوا ببالغين شيئا مما يجب عليهم نحوه ، ولكنه يستر عليهم ما فرط من كفرانها ، ويرحمهم بفيض النعم عليهم مع عدم استحقاقهم لها ، ثم أعقب هذا بذكر خواص الألوهية وهى علم السر والنجوى والخلق وهذه الأصنام ليس لها شىء من ذلك فهى مخلوقة لا خالقة ولا شعور لها بحشر ولا نشر ، ومن هذا كله يعلم أن الإله واحد لاشريك له ، ثم ذكر الأسباب الداعية إلى الإشراك وهى تحجر القلوب و إنكار التوحيد فهى لاترغب فى الثواب ولا ترهب العقاب وتستكبر عن عبادة الواحد الديان ـ لاجرم بقيت مصرة على ما كانت عليه من الجهل والضلال .

الإيضاح

(أفمن يخلق كمن لايخلق ؟ أفلا تذكرون ؟) أى أفمن يخلق هذه الخلائق العجيبة التى عددناها عليكم وينعم هذه النعم العظيمة ـ كمن لايخلق شيئا ولا ينعم نعماً صغيرة ولا كبيرة ، أفلا تذكرون هذه النعم وهذا السلطان العظيم والقدرة على ما شاء من الحكمة ، وعجز أوثانكم وضعفها ومهانتها ، وأنها لاتجلب إلى نفسها نفعا ولا تدفع ضرا ، فتعرفوا بذلك خطأ ما أنتم عليه من عبادتها و إقراركم لها بالألوهية .

وخلاصة هذا ـــ الإنكار عليهم ورميهم بالجهل وسوء التقدير وقلة الشكر لمن أنعم عليهم بما لايحصى من النعم ، مع وضوح ذلك وقلة احتياجه إلى تدبر وتفكر و إطالة نظر ، بل يكفى فيه تنبه العقل ليعلم أن العبادة لاتليق إلا المنعم بكل هذه النعم ، أما هذه الأصنام التى لافهم لها ولا قدرة ولا اختيار فلا تنبغى عبادتها ولا الاشتغال بطاعتها .

قال قتادة فى الآية : الله هو الخالق الرازق ، لاهذه الأوثان التى تعبد من دون الله لا تَخْلُق شيئا ولا تملك لأهلها ضرا ولا نفعا اهـ .

وبعد أن نبههم سبحانه إلى عظمته ذكرهم بنعمه عليهم وإحسانه إليهم فقال :

(وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها) أى وإن تعدوا نعم الله لاتضبطوا عددها فضلا عن أن تستطيعوا القيام بشكرها ، فإن العبد مهما أتعب نفسه فى طاعته ، وبالغ فى شكران نعمه ، فإنه يكون مقصرا ، فنعم الله كثيرة ، وعقل المخلوق قاصر عن الإحاطة بها ، ومن ثم فهو يتجاوز عن ذلك التقصير ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(إن الله لغفور) فيستر عليكم تقصيركم فى القيام بشكرها .

(رحيم) بكم فيفيض عليكم نعمه مع استحقاقكم للقطع والحرمان بما تأتون وما تذرون من أصناف الكفر والعصيان ، ومن أفظع ذلك وأعظمه جُرْما المساواة بين الخالق والمخلوق .

قال بعض الحكماء : إن أى جزء من البدن إذا اعتراه الألم نغص على الإنسان النعم ، وتمنى أن ينفق الدنيا لوكانت فى ملكه حتى يزول عنه ذلك الألم ، وهو سبحانه يدبر جسم الإنسان على الوجه الملائم له ، مع أنه لاعلم له بوجود ذلك ، فكيف يطيق حصر نعمه عليه أو يقدر على إحصائها ، أو يتمكن من شكر أدناها ؟ .

ربنا هذه نواصينا بيدك ، خاضعة لعظم نعمك ، معترفة بالعجز عن تأدية الشكر لشىء منها ، لانحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، ولا نطيق التعبير بالشكر لك ، فتجاوز عنا ، واغفر لنا ، وأسبل ذيول سترك على عوراتنا ، فإنك إلا تفعل نهلك ، لتقصيرنا فى شكر نعمك ، فكيف بما فرط منا من التساهل فى الائتمار بأوامرك ، والانتهاء عن مناهيك :

العفو يرجى من بنى آدم		فكيف لا يرجى من الرب		اهـ

وبعد أن أبطل عبادة الأصنام ، من قِبَل أنها لاقدرة لها على الخلق والإنعام ، أبطل عبادتها بوجه آخر وهو أن الإله يجب أن يكون عليما بالسر والعلانية ، وهذه الأصنام جماد لامعرفة لها بشىء فكيف تجمل عبادتها ؟ وإلى ذلك أشار بقوله :

(والله يعلم ما تسرون وما تعلنون) أى والله يعلم ما تسرونه فى ضمائركم وتخفونه عن غيركم وما تبدونه بألسنتكم وجوارحكم وأفعالكم ، وهو محصٍ ذلك كله عليكم

فيجازيكم به يوم القيامة ، فيجازى المحسن بإحسانه ، والمسيء منكم بإساءته ، وهو سائلكم عما كان منكم من الشكر فى الدنيا على النعم التى أنعمها عليكم فيها ، ما أحصيتم منها ومالم تحصوا .

ثم وصف سبحانه هذه الأصنام بصفات تجعلها بمعزل عن استحقاق العبادة تنبيها إلى كمال حماقة المشركين وأنهم لا يفهمون ذلك إلا بالتصريح دون التلويح فقال :

(١) (والذين تدعون من دون الله لايخلقون شيئا وهم يخلقون) أى والأوثان التى تعبدونها من دون الله لاتخلق شيئا بل هى مخلوقة ، فكيف يكون إلها ما يكون مصنوعا ، وغيره هو الذى دبّر وجوده ؛ ونحو الآية قوله : « أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ؟ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » .

(٢) (أموات غير أحياء) أى هى أموات ولا تعتريها الحياة بوجه ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ، وفائدة قوله غير أحياء بيان أن بعض ما لا حياة فيه قد تدركه الحياة بعدُ كالنطفة التى ينشئها الله تعالى حيوانا ، وأجساد الحيوان التى تبعث بعد موتها ، أما هذه الأصنام من الحجارة والأشجار فلا يعقب موتها حياة وذلك أتم فى نقصها .

(٣) (وما يشعرون أيان يبعثون) أى وما تدرى هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله متى تُبعث عبدتها .

ولا يخفى ما فى ذلك من التهكم بها ، لأن شعور الجماد بالأمور الظاهرة بديهى الاستحالة لدى كل أحد ، فكيف بما لا يعلمه إلا العليم الخبير ؛ كما أن فيه تهكما بالمشركين من قِبَل أن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم ليجازوهم على عبادتهم إياهم ، وفيه تنبيه إلى أن البعث من لوازم التكليف لأنه جزاء على العمل من خير أو شر ، وأن معرفة وقته لابد منه فى الألوهية .

ولما أبطل طريق عبدة الأصنام وبين فساد مذهبهم صرح بالمدّعَى ولخص النتيجة بعد إقامة الحجة فقال :

(إلهكم إله واحد) أى معبودكم الذى يستحق العبادة وإفراد الطاعة له دون

سائر الأشياء ـ معبود واحد لاتصلح العبادة إلا له ، فأفردوا له الطاعة وأخلصوا له العبادة ولا تجعلوا معه شريكا سواه .

ثم ذكر الأسباب التى لأجلها أصر الكفار على الشرك وإنكار التوحيد فقال :

(فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون) أى والذين لايصدقون بوعد الله ولا وعيده ، ولا يقرون بالمعاد إليه بعد الممات ـ قلوبهم جاحدة لما قصصناه عليكم من قدرة الله وعظمته وجزيل نعمه عليهم ، وأن العبادة لاتصلح إلا له والألوهية ليست لشىء سواه ، فلا يؤثر فيها وعظ ، ولا ينجع فيها تذكير ؛ وهم مستكبرون عن قبول الحق ، متعظمون عن الإذعان للصواب ، مستمرون على الجحد تقليدا لما مضى عليه آباؤهم من الشرك به كما حكى سبحانه عنهم قولهم : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ » وقولهم : « أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً ؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ » وقال : «وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَيُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَاهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » .

ثم ذكر وعيدهم على أعمالهم فقال :

(لاجرم أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون) أى حقا إن الله يعلم ما يسر هؤلاء المشركون من إنكارهم لما قصصته عليك واستكبارهم على الله ، و يعلم ما يعلنون من كفرهم به وافترائهم عليه .

ثم علل سوء صنيعهم بشدة استكبارهم فقال :

(إنه لايحب المستكبرين) أى إن الله لايحب المستكبرين عن توحيده والاستجابة لأنبيائه ورسله ، بل يبغضهم أشد البغض و ينتقم منهم أعظم الانتقام .

أخرج مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجة عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولايدخل

النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، فقال رجل : يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر من بطر الحق، وغمص الناس» . وفى الصحيح « إن المتكبرين أمثال الذر يوم القيامة تطؤهم الناس بأقدامهم لتكبرهم » .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ؟ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ، بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) .

شرح المفردات

الأساطير : واحدها أسطورة كأرجوحة وأراجيح، وهى الترّهات والأباطيل ، والأوزار : الآثام واحدها وِزْر ، ساء ما يزرون : أى بئس شيئا يحملونه ، والمكر : صرف غيرك عما يريده بحيلة ، ويراد به هنا مباشرة الأسباب وترتيب المقدمات ، فأتى الله بنيانهم من القواعد : أى أهلكه وأفناه كما يقال أتى عليه الدهر ، والقواعد:

الدعائم والعمد : واحدها قاعدة ، خرّ : سقط ، يخزيهم : يذلهم ويهينهم ، وتشاقون أى تخاصمون وتنازعون الأنبياء وأتباعهم فى شأنهم ، وأصله أن كلا من المتخاصمين فى شق وجانب غير شق الآخر ، والذين أوتوا العلم : هم الأنبياء ، والسلم : الاستسلام والخضوع ، بلى : بمعنى نعم ، والمثوى : مكان الثواء والإقامة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر دلائل التوحيد ونصب البراهين الواضحة على بطلان عبادة الأصنام، أردف ذلك بذكر شبهات من أنكروا النبوة مع الجواب عنها ، وبين أنهم ليسوا بِدعًا فى هذه المقالة فقد سبقتهم أمم قبلهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، فأهلكهم فى الدنيا وسيخزيهم يوم القيامة بما فعلوا ، ثم ذكر أنهم حين يشاهدون العذاب يستسلمون ويقولون ما كنا نعمل من سوء ، ولكن الله عليم بهم وبما فعلوا ، ولا مثوى لأمثال هؤلاء المتكبرين إلا جهنم وبئس المثوى هى :

الإيضاح

(وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) أى وإذا قيل لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من المشركين : أى شىء أنزله ربكم ؟ قالوا لم ينزل شيئا ، إنما الذى يتلى علينا أساطير الأولين أى هو مأخوذ من كتب المتقدمين .

ونحو الآية قوله حكاية عنهم : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » وكانوا يفترون على الرسول صلى الله عليه وسلم أقوالا مختلفة؛ فتارة يقولون إنه ساحر، وأخرى إنه شاعر أو كاهن ، وثالثة إنه مجنون ، ثم قر قرارهم على ما اختلقه زعيمهم الوليد بن المغيرة المخزومى كما حكى عنه الكتاب الكريم : « إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ » أى ينقل ويحكى ، فتفرقوا معتقدين

صحة قوله ، وصدق رأيه ، قبحهم الله ، وكان المشركون يقتسمون مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سألهم وفود الحاج ويقولون هذه المقالة .

ثم بين عاقبة أمرهم فقال :

(ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) أى وإنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ، لتكون عاقبتهم أنهم يتحملون آثامهم وآثام الذين يتبعونهم ويوافقونهم أى يصير عليهم خطيئة ضلالهم فى أنفسهم ، وخطيئة إغوائهم وإضلالهم لغيرهم واقتدائهم بهم كما جاء فى الحديث « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » .

ونحو الآية قوله تعالى « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » والمراد من قوله (كاملة) أنه لا ينقص منها شىء ولا يُكفَّرُ بنحو نكبة تصيبهم فى الدنيا ، ولا طاعة مقبولة تكفر بعض تلك الأوزار كما هو حال المؤمنين .

وفائدة قوله بغير علم — بيان أنهم يضلون من لا يعلم أنهم ضلال وأنهم على الباطل ، وفى ذلك تنبيه إلى أن كيدهم لا يروج على ذى لب ، وإنما يقلدهم الجهلة الأغبياء ، وزيادة تعيير وذم لهم ، إذ كان عليهم إرشاد الجاهلين لا إضلالهم .

وقصارى القول — إن هؤلاء قد دنسوا أنفسهم واختاروا لها الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فكانوا السبب فيما احتملوه من الأوزار والآصار ، كما كانوا واسطة فى تحمل من اتبعوهم هذه الأوزار أيضا ، والله تعالى لم يظلمهم فيما جازاهم به ، بل هم الذين قسطوا وجاروا على أنفسهم فاستحقوا هذا الجزاء .

ثم هددهم وتوعدهم فقال :

(ألا ساء ما يزرون) أى بئس شيئا يرتكبونه من الإثم والذنب ما يفعلون .

ثم بين لهم أن غائلة مكرهم عائدة إليهم ، ووبال ذلك لاحق بهم كدأب من قبلهم من الأمم الخالية الذين أصابهم من العذاب ما أصابهم بتكذيبهم لرسلهم فقال :

(قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون) أى إن حال من قبلهم وقد دبروا الحيل ونصبوا الحبائل ليمكروا بها رسل الله فأبطلها الله وجعلها سبيلا لهلاكهم ، كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالأساطين ، فضعضعت أساطينه وسقط عليهم السقف فهلكوا تحته من حيث لايشعرون بسقوطه ـ فما نصبوه من الأساطين وظنوه سبب القوة والتحصين فى البنيان صار سبب الهلاك ، كذلك هؤلاء كانت عاقبة مكرهم وبالاً عليهم ، ونحو الآية قولهم فى المثل : من حفر لأخيه جُبًّا ، وقع فيه منكبًّا .

وخلاصة ذلك — إن الله أحبط أعمالهم وجعلها وبالاً عليهم ونقمة لهم .

وبعد أن بين سبحانه ما حل بأصحاب المكر فى الدنيا من العذاب والهلاك ، بين حالهم فى الآخرة فقال :

(ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم) أى ثم إن ربك يوم القيامة يخزيهم بعذاب أليم ، ويقول لهم حين ورودهم عليه على سبيل الاستهزاء والسخرية : أين الذين كنتم تزعمون فى الدنيا أنهم شركائى ، وهلا تحضرونهم اليوم ليدفعوا عنكم ما يحل بكم من العذاب ، فقد كنتم تعبدونهم فى الدنيا وتتولونهم ، والولىّ ينصر وليه .

والمراد من المشاقة فيهم مخاصمة الأنبياء وأتباعهم فى شأنهم وزعمهم أنهم شركاء حقا حين بينوا لهم ذلك ، والمراد بالاستفهام عن ذلك الاستهزاء والتبكيت والاحتقار لشأنهم ، إذ كانوا يقولون : إن صح ما تدعون إليه من عذابنا فالأصنام تشفع لنا .

والخلاصة — إنه لاشركاء ولا أماكن لهم .

ثم ذكر مقال الأنبياء والمرسلين فى شأنهم يوم القيامة .

(قال الذين أوتوا العلم إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين) أى قال الذين

أوتوا العلم بدلائل التوحيد وهم الأنبياء صلوات الله عليهم والمؤمنون الذين كانوا يدعونهم فى الدنيا إلى دينهم ، فيجادلون وينكرون عليهم : إن الذل والهوان والعذاب يوم الفصل على الكافرين بالله وآياته ورسله – ومرادهم بهذه المقالة الشماتة وزيادة الإهانة للكافرين .

ثم بين أن الكافرين الذين يستحقون هذا العذاب هم الذين استمر كفرهم إلى أن تتوفاهم الملائكة وهم ظالمو أنفسهم فقال :

(الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) أى الكافرين الذين تقبض ملائكة الموت أرواحهم وهم ظالمو أنفسهم ومعرضوها للعذاب المخلد بكفرهم ، وأى ظلم للنفس أشد من هذا الكفر .

ثم ذكر حالهم حينئذ من الخضوع والمذلة فقال :

(فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء) أى فاستسلموا وانقادوا حين عاينوا العذاب قائلين : ما كنا نشرك بربنا أحدا ، وهم قد كذبوا على ربهم واعتصموا بالباطل رجاء النجاة ، ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم : « وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » .

ثم أكذبهم سبحانه فيما قالوا فقال :

(بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون) أى بل كنتم تعملون أعظم السوء وأقبح الآثام والله عليم بذلك ، فلا فائدة لكم فى الإنكار والله مجازيكم بأفعالكم .

ثم بين ما يترتب على قبيح أفعالهم فقال :

(فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين) أى فادخلوا طبقات جهنم وذوقوا ألوانا من العذاب ، بما دنستم به أنفسكم من الإشراك بربكم واجتراحكم عظيم الموبقات والمعاصى – خالدين فيها أبدا ، وبئس المقيل والمقام دار الذل والهوان لمن كان متكبرا عن اتباع الرسل والاهتداء بالآيات التى أنزلت عليهم ، وما أفظعها من دار ، وصفها ربنا بقوله: «لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا» .

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا خَيْرًا ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ ، وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ، كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أحوال المكذبين بالله ورسوله الذين ينكرون وحيه و يقولون إن محمدا قد لفق أساطير الأولين وترّهاتهم ونقلها للناس وادعى أنها من رب الأرض والسموات ، وذكر ما سينالهم من النكال والوبال إذ يدخلون جهنم خالدين فيها كفاء ما اجترحت أيديهم من الآثام وكسبته من المعاصى ـ أردف ذلك بوصف المؤمنين الذين إذا سئلوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا ، وبذكر ما أعده لهم من الخير والسعادة فى جنات تجرى من تحتها الأنهار جزاء وفاقا لما أحسنوا من العمل وأتوا به من جميل الصنع .

الإيضاح

(وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) أى وقيل للذين خافوا عقاب ربهم : أىّ شىء أنزله ربكم ؟ قالوا أنزل خيرا و بركة ورحمة لمن اتبع دينه وآمن برسوله.

روى ابن أبى حاتم عن السدّى قال : اجتمعت قريش فقالوا إن محمدا رجل حلو اللسان إذا كلمه الرجل ذهب بعقله ، فانظروا ناسا من أشرافكم المعدودين المعروفة أنسابهم فابعثوهم فى كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة أو ليلتين ، فمن جاء يريده فردوه عنه ، فخرج ناس فى كل طريق ، فكان إذا أقبل

الرجل وافدا لقومه ينظر ما يقول محمد ، ووصل إليهم قال أحدهم أنا فلان بن فلان فيعرّفه نسبه و يقول له : أنا أخبرك عن محمد . إنه رجل كذاب لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لاخير فيهم ، وأما شيوخ قومه وخيارهم فمفارقون له ، فيرجع الوافد ، فذلك قوله تعالى : (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) فإن كان الوافد ممن عزم الله له الرشاد فقالوا له مثل ذلك ، قال : بئس الوافد لقومى إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم رجعت قبل أن ألقى هـذا الرجل وأنظر ما يقول وآتى قومى ببيان أمره ، فيدخل مكة فيلقى المؤمنين فيسألهم ماذا يقول محمد ؟ فيقولون خيرا .

ثم فصلوا هذا الخير فقالوا .

(للذين أحسنوا فى هـذه الدنيا حسنة) أى للذين آمنوا بالله ورسوله وأطاعوه فى هذه الدنيا ، ودعوا عباده إلى الإيمان والعمل بما أمر به ـ مثوبة حسنة من عند ربهم كفاء ما قدموا من عمل صالح .

ونحو الآية قوله : « مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

ثم ذكر جزاءهم فى الآخرة وما فيه من جزيل النعم فقال :

(ولدار الآخرة خير) من الحياة الدنيا ، والجزاء فيها أتمّ من الجزاء فى تلك .

ونحو الآية قوله : « وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً » الآية ، وقوله : « وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » وقوله لرسوله : « وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى » .

وفصل هذا الجزاء بقوله :

(ولنعم دار المتقين.جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار) أى ولنعمت

الدار للمتقين جنات إقامة تجرى من بين قصورها وأشجارها الأنهار ، حسنت مستقرا ومقاما .

ثم بين أن نعمها غير ممنوعة ولا مقطوعة فقال :

(لهم فيها ما يشاءون) أى للذين أحسنوا فى هذه الدنيا فى جنات عدن مايشاءون مما تشتهى أنفسهم وتقرّ به أعينهم كما قال : « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

ثم ذكر أن هذا جزاء على إحسان الأعمال فقال :

(كذلك يجزى الله المتقين) أى مثل ذلك الجزاء الأوفى يجزى الله الذين اتقوا الشرك والمعاصى .

وفى هذا حث المؤمنين على الاستمرار على التقوى وحث لغيرهم على تحصيلها .

ثم وصف الله المتقين بقوله :

(الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) قال الراغب : الطيب من الناس من تعرى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الخصال ، وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال ، وهذا إيضاح لقول مجاهد : الطيب من تزكو أقواله وأفعاله .

(وطيبين) كلة مختصرة جامعة لكثير من المعانى ، يدخل فيها إتيانهم بكل ما أمروا به واجتنابهم كل مانهوا عنه ، واتصافهم بفضائل الأخلاق وجميل السجايا ، وبراءتهم من ذميم الرذائل ، وتوجههم إلى حضرة القدس ، وعدم اشتغالهم بعالم الشهوات واللذات الجسمانية ، ويتبع ذلك أنه يطيب لهم قبض أرواحهم ، لأنها لم تقبض إلا مع البشارة بالجنة حتى كأنهم مشاهدوها ، ومن هذه حاله لايألم بالموت كما قال : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ » .

ثم ذكر ما تقوله لهم الملائكة تبشيرا لهم فقال :

(يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) أى تقول لهم الملائكة : سلام عليكم لايحيق بكم مكروه بعد ، ادخلوا الجنة التى أعدها لكم ربكم ووعدكموها بما قدمتم من عمل ، وبما دأبتم على تقواه وطاعته ؛ والمراد من قوله (ادخلوا الجنة) البشارة بالدخول فيها بعد البعث إذا أريد الدخول بالأرواح والأبدان ، فإن أريد الدخول بالأرواح فحسب كان ذلك حين التوفى كما يشير إليه قوله صلى الله عليه وسلم « القبر إما روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار » .

أخرج ابن جرير والبيهقى عن محمد بن كعب القُرَظى قال : إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال : السلام عليك ياولىّ الله ، الله يقرأ عليك السلام وبشره بالجنة اه .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ المَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ، كَذٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَـكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤) .

شرح المفردات

ينظرون : ينتظرون ، وأمر ربك : هو الهلاك وعذاب الاستئصال ، وحاق بهم أى أحاط بهم ، وخص استعمالا بإحاطة الشر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر طعن المشركين فى القرآن بنحو قولهم : إنه أساطير الأولين ، وإنه قول شاعر ، ثم هددهم بضروب من التهديد والوعيد ، ثم أتبعه بالوعد بالثواب لمن صدق به ــ قفّى على ذلك ببيان أن الكفار لايزدجرون عن أباطيلهم إلا إذا جاءتهم

الملائكة قابضة أرواحهم ، أو يأتيهم عذاب الاستئصال فلا يبقى منهم أحدا ، ثم أتبعه ببيان أن هؤلاء ليسوا ببدع فى الأمم ، فقد فعل من قبلهم مثل فعلهم فأصابهم الهلاك جزاء ما فعلوا ، وما ظلمهم الله ولكن هم قد ظلموا أنفسهم : « إِنَّ اللّٰهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » .

الإيضاح

(هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة) أى ما ينتظر كفار مكة الذين قالوا إن القرآن أساطير الأولين ، إلا أن تأتيهم الملائكة تقبض أرواحهم .

(أو يأتى أمر ربك) بالعذاب فى الدنيا كما فعل بأسلافهم من الكفار ، فيرسل عليهم الصواعق أو يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ، وهذا تهديد لهم على تماديهم فى الباطل واغترارهم بالدنيا .

وخلاصة هذا — حثهم على الإيمان بالله ورسوله ، والرجوع إلى الحق قبل أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم من السالفين المكذبين لرسلهم .

ثم ذكر أنهم ليسوا بأول من كذب الرسل فقال :

(كذلك فعل الذين من قبلهم) أى هكذا تمادى أسلافهم فى شركهم حتى ذاقوا بأسنا وحل بهم عذابنا ونكالنا .

ثم ذكر أن ما يصيبهم جزاء لما كسبت أيديهم فقال :

(وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى وما ظلمهم الله بإنزال العذاب بهم ، لأنه أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه ، ولكن ظلموا أنفسهم بمخالفة الرسل وتكذيبهم ما جاءوا به .

ثم أعقبه بذكر ما ترتب على أعمالهم فقال :

(فأصابهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى فلهذا أصابتهم

عقوبة الله على ما فعلوا وأحاط بهم عذابه الأليم جزاء ما كانوا يسخرون من الرسل حين توعدوهم بعقابه .

ونحو الآية قوله : « هٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ » .

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٧) .

شرح المفردات

الطاغوت: كل معبود دون الله من شيطان وكاهن وصنم وكل من دعا إلى ضلال ويقع على الواحد كقوله « يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ » وعلى الجمع كقوله « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ » حقت : وجبت وثبتت بالقضاء السابق فى الأزل لإصراره على الكفر والعناد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن هؤلاء المشركين لا يزدجرون إلا إذا جاءتهم الملائكة بالتهديد والوعيد أو أتاهم عذاب الاستئصال كما حدث لمن قبلهم من الأمم جزاء استهزائهم برسل الله — قفى على ذلك ببيان أنهم طعنوا فى إرسال الأنبياء جملة وقالوا

إنا مجبورون على أعمالنا فلا فائدة من إرسالهم ، فلو شاء الله أن نؤمن به ولا نشرك به شيئا ونحل ما أحله ولا نحرم شيئا مما حرمنا لكان الأمر كما أراد ، لكنه لم يشأ إلا ما نحن عليه ، فما يقوله الرسل إنما هو من تلقاء أنفسهم لا من الله .

وقد رد الله عليهم مقالهم بأنه كلام قد سبق بمثله المكذبون من الأمم السالفة ، وما على الرسل إلا التبليغ وليس عليهم الهداية ، ولم يترك الله أمة دون أن يرسل إليها هاديا يأمر بعبادته و ينهاهم عن الضلال والشرك ، فمنهم من استجاب دعوته ومنهم من أضله الله على علم ، فحقت عليهم كلمة ربك وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ثم أمرهم بالضرب فى الأرض ليروا آثار أولئك المكذبين الذين أخذوا بذنوبهم ، ثم ذكّر رسوله بأن الحرص على إيمانهم لا ينفعك شيئا ، فإن الله لا يخلق الهداية جبرا وقسرا فيمن يختار الضلالة لنفسه ، كما لا يجد أحدا يدفع عنه بأس الله ونقمته .

الإيضاح

(وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء) أى وقال الذين أشركوا بالله فعبدوا الأصنام والأوثان من دون الله معتذرين عما هم عليه من الشرك محتجين بالقدر : ما نعبد هذه الأصنام إلا لأن الله قد رضى عبادتنا لها ، ولا حرّمنا ما حرمنا من البحائر والسوائب والوصائل ونحو ذلك إلا لأن الله قد رضى ذلك منا ، ولو كان كارها لِمَا فعلنا لهدانا إلى سواء السبيل ، أو لعجل لنا العقوبة وما مكننا من عبادتها .

وقد رد الله عليهم شبهتهم بقوله :

(كذلك فعل الذين من قبلهم) أى ومثل ذلك الفعل الشنيع فعل الذين من قبلهم من الأمم واستن هؤلاء سنتهم وسلكوا سبيلهم فى تكذيب الرسول واتباع أفعال آبائهم الضلال .

ثم بين خطأهم فيما يقولون و يفعلون فقال :

(فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) أى فهل على الرسل الذين أمروا بتبليغ رسالات ربهم من أمره ونهيه إلا إبلاغ الرسالة و إيضاح طريق الحق و إظهار أحكام الوحى التى منها أن مشيئته تعالى تتعلق بهداية مَن وجّه همته إلى تحصيل الحق كما قال « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » وليس من وظيفتهم إلجاء الناس إلى الإيمان شاءوا أو أبوا ، فإن ذلك ليس من شأنهم ولا من الحكمة التى عليها مدار التكليف حتى يستدل بعدم ظهور آثارها على عدم حقية الرسل أو على عدم تعلق مشيئة الله بذلك .

وقصارى هذا — إن الثواب والعقاب لابد فيهما من أمرين : تعلق مشيئته تعالى بوقوع أحدهما ، وتوجيه همة العبد إلى تحصيل أسبابه وصرف اختياره إلى الدأب على إيجاده ، و إلا كان كل من الثواب والعقاب اضطراريا لا اختياريا ، والرسل ليس من شأنهم إلا تبليغ الأوامر والنواهى ، أما العمل بها إلجاء وقسرا فليس من وظيفتهم لا فى كثير ولا قليل .

ثم بين سبحانه أن بعثة الرسل أمر جرت به السنة الإلهية فى الأمم كلها ، وجعلت سببا لهدى من أراد الله هدايته وزيادة ضلال من أراد ضلاله كالغذاء الصالح ينفع المزاج السوىّ ويقويه ويضر المزاج المنحرف ويفنيه فقال :

(ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) أى ولقد أرسلنا فى كل أمة سلفت قبلكم رسولا كما بعثنا فيكم رسولا ، فقال لهم : اعبدوا الله وحده لاشريك له واحذروا أن يغويكم الشيطان ويصدكم عن سبيل الله فتضلوا .

ونحو الآية قوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ » وقوله : « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ؟ » .

و إجمال القول — إن المشيئة الشرعية للكفر منتفية ، لأنه تعالى نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله ، والمشيئة الكونية وهى تمكين عباده من الكفر وتقديره لهم

على حسب اختيارهم وصرف هممهم إلى تحصيل أسبابه ، لاحجة لهم فيها ، لأنه تعالى خالق النار وجعل أهلها من الشياطين وأهل الكفر، وهو لايرضى لعباده الكفر، وله فى ذلك حجة ناصعة وحكمة بالغة .

ثم بين سبحانه أنه أنكر على عباده المكذبين كفرهم بإنزال العقوبة بهم فى الدنيا بعد إنذار الرسل فقال :

(فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) أى فمن بعثنا فيهم رسلنا من هداه الله ووفقه لتصديقهم وقبول إرشادهم والعمل بما جاءوا به ، ففازوا وأفلحوا ونجوا من عذابه ، ومنهم من جاروا عن قصد السبيل فكفروا بالله وكذبوا رسله واتبعوا الطاغوت فأهلكهم بعقابه وأنزل بهم شديد بأسه الذى لايردّ عن القوم المجرمين .

(فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أى فسيروا فى الأرض التى كان يسكنها القوم الظالمون ، والبلاد التى كانوا يعمرونها كديار عاد وثمود ومن سار سيرتهم ممن حقت عليه الضلالة ، وانظروا إلى آثار سخط الله عليهم ، لعلكم تعتبرون بما حل بهم .

ثم خاطب سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم مسلّيا له عما يراه من جحود قومه وشديد إعراضهم ومبالغتهم فى عنادهم مع حدبه عليهم وعظيم رغبته فى إيمانهم ، ومبينا له أن الأمر بيد الله وليس له من الأمر شىء فقال :

(إن تحرص على هداهم فإن الله لايهدى من يضل) أى إن تحرص أيها الرسول على هداية قومك — لاينفعهم حرصك إذا كان الله يريد إضلالهم بسوء اختيارهم وتوجيه عزائمهم ، إلى عمل المعاصى والإشراك بربهم .

ونحو الآية قوله : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » وقوله حكاية عن مقالة نوح لقومه : « وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ » وقوله : « مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

ومجمل القول — إن من اختار الضلالة ووجه همته إلى تحصيل أسبابها فالله سبحانه لايخلق فيه الهداية قسرا و إلجاء ، لأن مدار الإيمان والكفر الاختيار لا الإلجاء والاضطرار.

(وما لهم من ناصرين) أى وما لهم ناصر ينصرهم من الله إن أراد عقوبتهم كما قال : « أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ » .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ، بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠) .

شرح المفردات

الجهد ، بفتح الجيم : المشقة : و بضمها: الطاقة ، وجهد أيمانهم : أى غاية اجتهادهم فيها ، و بلى : كلة جواب كنعم لكنها لاتقع إلا بعد النفى فتثبت ما بعده ، وعدا عليه حقا : أى وعد ذلك وعدا عليه حقا ، أى ثابتا متحققا لاشك فيه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه حجتهم وقولهم إنه لاحاجة إلى الأنبياء جميعا ، لأنا مجبورون فيما نفعل، وأنه لو شاء الله أن نهتدى لكان ، دون حاجة إلى إرسال الأنبياء، وردّه عليهم بأن الحاجة إليهم إنما هى فى تبليغ ما أمر به وترك ما نهى عنه ولا يلزمون أحدا بإيمان ولا كفر ــ أردف هذا بشبهة أخرى لهم ، إذ قالوا إنما نحتاج إلى الأنبياء لو كان لنا عودة إلى حياة جديدة بعد الموت فيها ثواب وعقاب ، ولكن

العودة إلى حياة أخرى غير ممكنة ولا معقولة ـ ذاك أن الجسم إذا تفرق وذهبت أجزاؤه كل مذهب امتنع أن يعود بعينه ليحاسب و يعاقب ، فرد الله عليهم ما قالوا بأن هذا ممكن وقد وعد عليه وعدا حقا ، وأنه فعل ذلك ليميز الخبيث من الطيب والعاصى من المطيع ، وأيضا فإيجاده تعالى للأشياء لايتوقف على سبق مادة ولا آلة ، بل يقع ذلك بمحض قدرته ومشيئته وليس لقدرته دافع ولا مانع .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال : كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه فكان فيما تكلم به ، والذى أرجوه بعد الموت إنه لكذا وكذا ، فقال له المشرك : إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت ، وأقسم جهد يمينه لايبعث الله من يموت ، فأنزل الله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) الآية . وأخرج هؤلاء عن أبى هريرة قال : «قال الله سبّنى ابن آدم ولم يكن ينبغى له أن يسبنى ، وكذبنى ولم يكن ينبغى له أن يكذبنى ، فأما تكذيبه إياى فقال (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت) وقلت : (بلى وعدا عليه حقا) وأماسبه إياى فقال : (إن الله ثالث ثلاثة) وقلت : (هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد) » .

الإيضاح

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت) أى إنهم اجتهدوا فى الحلف وأغلظوا فى الأيمان أنه لايقع بعث بعد الموت ، وهذا استبعاد منهم لحصوله، من جرّاء أن الميت يفنى و يعدم ، والبعث إعادة له ، و إعادة المعدوم مستحيلة .

وقد رد الله عليهم وكذبهم بقوله :

(بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لايعلمون) أى بلى سيبعثه الله بعد مماته وقد وعد بذلك وعدا حقا لابد منه ، ولكن أكثر الناس لجهلهم بشئون الله وصفات كماله من علم وقدرة وحكمة ونحوها ، لايعلمون أن وعد الله لابد من نفاذه.

وأنه باعثهم بعد مماتهم يوم القيامة أحياء ، ومن قِبَل هذا جرءوا على مخالفة الرسل ووقعوا فى الكفر والمعاصى .

ثم ذكر سبحانه الحكمة فى المعاد ، وقيام الأجساد يوم التناد فقال :

(ليبين لهم الذى يختلفون فيه) أى بل يبعثهم ليبين لهم وجه الحق فيما جاء به الرسل وخالفتهم فيه أممهم ، فيمتاز الخبيث من الطيب والمطيع من العاصى والظالم من المظلوم ، إلى نحو أولئك مما كان مدار دعوة أولئك الرسل وأنكرته الأمم الذين أرسلوا إليهم ، ويجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

(وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) أى وليعلم الذين جحدوا وقوع البعث والجزاء أنهم كانوا كاذبين فى قولهم : لا يبعث الله من يموت ، وسيدعّون إلى نار جهنم دعّا وتقول لهم الزبانية : « هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ . اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

ثم أخبر سبحانه عن كامل قدرته وأنه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء فقال :

(إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) أى إنا إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصَب فى إحيائه ولا بعثه ، لأنا إذا أردنا ذلك فإنما نقول له : كن فيكون ، لا معاناة فيه ولا كلفة علينا .

ونحو الآية قوله : « فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » وقوله : « وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » وقوله : « مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » .

وخلاصة هذا — إنه تعالى مثل حصول المقدورات وَفق مشيئته وسرعة حدوثها حين إرادته ، بسرعة حصول المأمور حين أمر الآمر وقوله دون هوادة ولا تراخ .

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) .

المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه أن الكفار أقسموا بالله جهد أيمانهم على إنكار البعث والقيامة، وتماديهم فى الغى والضلالة ، (ومن هذه حاله فليس بالعسير عليه أن يقدم على إيذاء المؤمنين بألوان من الإيذاء حتى يضطروهم إلى الهجرة عن الديار ومفارقة الأهل والأوطان) ـ ذكر هنا حكم تلك الهجرة و بين ما لهؤلاء المهاجرين من حسنات فى الدنيا وأجر فى الآخرة ، من جرّاء أنهم فارقوا أوطانهم وصبروا وتوكلوا على الله .

وفى هذا ترغيب لغيرهم فى الهجرة واحتمال كل أذى فى سبيل الله احتسابا للأجر .

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى هذه الآية قال : هؤلاء أصحاب محمد ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة ، ثم بوّأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة وجعل لهم أنصارا من المؤمنين .

الإيضاح

(والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة) أى والذين فارقوا قومهم ودورهم وأوطانهم وذهبوا إلى بلاد أخرى احتسابا لأجر الله ونيلا لمرضاته من بعد ما نالهم من الكفار من أذى فى أنفسهم وأموالهم ـ لنسكننهم فى الدنيا مساكن حسنة يرضونها ، إذ هم لما تركوا مساكنهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله عوضهم خيرا منها فى الدنيا ، فمكن لهم فى البلاد ، وحكمهم فى رقاب العباد ، وصاروا أمراء وحكاما ، وكل منهم للمتقين إماما .

ثم أخبر سبحانه أن ثوابه لهم فى الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم فى الدنيا فقال :

(ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) أى ولثواب الله إياهم على هجرتهم من أجله فى الآخرة أكبر ، لأن ثوابه إياهم هنالك الجنة التى لا يفنى نعيمها ولا يزول خيرها .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله فى الدنيا ، وما ذخره لك فى الآخرة أفضل ثم تلا هذه الآية .

(الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) أى هؤلاء هم الذين صبروا على ما نالهم من أذى قومهم ولم يرجعوا القهقرى ، وعلى مفارقة الوطن المحبوب ، وعلى احتمال الغربة بين ناس لم تجمعهم بهم ألفة نسب ولا جوار فى دار ، وقد فوضوا أمرهم إلى ربهم الذى أحسن لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة ، وأعرضوا عن كل ما سواه .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِى إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَىْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ

وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠) .

شرح المفردات

أهل الذكر : أهل الكتاب كما قال : « ولَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ » أى التوراة ، والبينة : هى المعجزات الدالة على صدق الرسول ، والزبر : واحدها زبور ، وهى كتب الشرائع والتكاليف التى يبلغها الرسل إلى العباد ، والذكر : القرآن ، لتبين للناس : أى لتوضح لهم ماخفى عليهم من أسرار التشريع ، والمكر : السعى بالفساد خفية ، والسيئات : أى الأعمال التى تسوءهم عاقبتها ، يخسف بهم الأرض : أى يزيلها من الوجود وهم على سطحها ، فى تقلبهم : أى فى أسفارهم وسيرهم فى البلاد البعيدة للسعى فى أرزاقهم كما قال : « لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ » بمعجزين : أى بفائتين الله تعالى بالهرب والفرار ، والتخوف : التنقص من قولهم تخوفت الشىء وتخيفته إذا تنقصته ، والمراد أنه ينقص أموالهم وأنفسهم قليلا قليلا حتى يأتى عليها الفناء جميعا ، ويتفيأ : من الفىء يقال فاء الظل يفىء فيئا إذا رجع وعاد بعد ما أزاله ضياء الشمس ، والظلال : واحدها ظل وهو ما يكون أول النهار قبل أن تناله الشمس ، قال رؤبة : كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فىء ، ومالم يكن عليه الشمس فهوظل ، واليمين والشمائل: جانبا الشىء الكثيف من الجبال والأشجار وغيرها ، والسجود : الانقياد والخضوع من قولهم سجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل، ومنه قوله : «واسجد لقرد السوء فى زمانه» أى اخضع له ، داخرون : أى صاغرون منقادون واحدهم داخر وهو الذى يفعل ما تأمره به شاء أو أبى ، يخافون ربهم : أى يخافون عقابه ، من فوقهم : أى بالقهر والغلبة كما قال : « وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ » .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جلت قدرته ما قاله المشركون من أنهم لاحاجة بهم إلى الأنبياء، لأن الحاجة إليهم إنما تدعو لو كانت هناك حياة أخرى يحاسبون فيها وهم لا يصدقون بها وليس من المعقول أن تكون - أردف ذلك بشبهة أخرى لهم إذ قالوا هب الله أرسل رسولا فليس من الجائز أن يكون بشرا فالله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحدا من البشر، فلو بعث إلينا رسولا لبعثه ملكا، ثم أجاب عن هذه الشبهة بأن سنة الله أن يبعث رسله من البشر، وإن كنتم فى شك من ذلك فاسألوا أهل الكتاب عن ذلك، ثم هددهم أن يخسف بهم الأرض كما خسف بقارون، أو يأتيهم بعذاب من السماء فيهلكهم بغتة كما فعل بقوم لوط، أو يأخذهم وهم يتقلبون فى أسفارهم ومعايشهم، أو يأخذهم طائفة بعد أخرى؛ ثم أعقب هذا بما يدل على كمال قدرته فى تدبير أحوال العالم العلوى والسفلى على أتم نظام وأحكم تقدير.

الإيضاح

(وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم) أى وما أرسلنا من قبلك رسلا إلى أممهم للدعوة إلى توحيدنا والانتهاء إلى أمرنا - إلا رجالا من بنى آدم نوحى إليهم لا ملائكة.

وجمل القول — إنا لم نرسل إلى قومك إلا مثل الذين كنا نرسلهم إلى من قبلهم من الأمم أى رسلا من جنسهم وعلى منهاجهم؛ روى الضحاك عن ابن عباس أن الله لما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم أنكر العرب ذلك وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا فأنزل الله: «أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ» الآية.

ونحو الآية قوله: «وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ» وقوله: «مَا هَذَا

إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ. وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ » وقوله : « وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً » .

(فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون) أى فاسألوا أهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى : أبشرا كانت الرسل إليهم أم ملائكة ؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم وإن كانوا بشرا فلا تنكروا أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم رسولا .

(بالبينات والزبر) تقول العرب زبرت الكتاب : أى كتبته كما قال تعالى « وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ » أى وما أرسلنا رسلا إلا رجالا بالأدلة والحجج التى تشهد لهم بصدق نبوتهم ، والكتب التى تشمل التكاليف والشرائع التى يبلغونها من الله إلى العباد .

(وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) أى وأنزلنا إليك القرآن تذكيرا وعظة للناس ، لتعرفهم ما أنزل إليهم من الأحكام والشرائع وأحوال القرون المهلكة بأفانين العذاب جزاء عنادهم مع أنبيائهم ، وتبين لهم ما أشكل عليهم من الأحكام وتفصل لهم ما أجمل على حسب مراتبهم فى الاستعداد والفهم لأسرار التشريع .

(ولعلهم يتفكرون) أى وتوقعا منك وانتظارا لتفكرهم فى هاتيك الأسرار والعبر، وإبعادا لهم عن سلوك سبيل الغابرين من المكذبين حتى لا يصيبهم مثل ما أصابهم.

ثم حذرهم وخوفهم مغبة ماهم فيه من العصيان والكفر فقال :

(أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون . أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين . أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم) أى أفأمن الذين مكروا برسول الله من أهل مكة ، وراموا صد أصحابه عن الإيمان بالله أن يصيبهم بعقوبة من عنده :

(١) إما بأن يخسف بهم الأرض ويبيدهم من صفحة الوجود كما فعل بقارون من قبل .

(٢) وإما بأن يأتيهم بعذاب من السماء فجأة من حيث لا يشعرون كما صنع بقوم لوط .

(٣) وإما بأن يأخذهم بعقوبة وهم فى أسفارهم يكدحون فى الأرض ابتغاء الرزق ، وماهم بممتنعين عليه فائتين له بالهرب والفرار كما قال: « وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ » وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلته» .

(٤) وإما بأن يخيفهم أولا ثم يعذبهم بعد ذلك ، بأن يهلك طائفة فتخاف التى تليها حتى يأتى عليهم جميعا ، ويكون هذا أشد عليهم إيلاما ووحشة .

وختم الآية بما ختم به ، لبيان أنه لم يأخذهم بعذاب معجل ، بل أخذهم بحالات يخاف منها كالرياح الشديدة والصواعق والزلازل ، وفى ذلك امتداد وقت ومهلة يمكن فيها تلافى التقصير ، وهذا من آثار رحمته بعباده .

ثم ذكر آثار قدرته على خلقه فقال :

(أو لم يروا إلى ما خلق الله من شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون) أى ألم ينظر هؤلاء الذين مكروا السيئات إلى ما خلق الله من الأجسام القائمة كالأشجار والجبال التى تتفيأ ظلالها وترجع من موضع إلى موضع عن اليمين والشمائل ، فهى فى أول النهار على حال ثم تتقلص ثم تعود إلى حال أخرى فى آخر النهار مائلة من جانب إلى جانب ومن ناحية إلى أخرى ، صاغرة منقادة لربها خاضعة لقدرته .

ثم ذكر ماهو كالدليل لما سلف فقال :

(ولله يسجد مافى السموات ومافى الأرض من دابة والملائكة وهم لايستكبرون) أى ولله يخضع مافى السموات وما فى الأرض مما يدب عليها، وكذلك ملائكته الذين فى السماء وهم لايستكبرون عن التذلل والخضوع له .

(يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) أى يخاف هؤلاء الملائكة

والدواب التى فى الأرض ربهم الذى هو من فوقهم بالقوة والقهر ـ أن يعذبهم إن عصوه ، ويفعلون ما أمرهم به ، فيؤدون حقوقه ويجتنبون سخطه .

ونحو الآية قوله : « وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلاَلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ » .

ومجمل القول — إنه تعالى نبه إلى أنه لعظمته وكبريائه تدين له المخلوقات بأسرها جمادها ونباتها وحيوانها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة .

وَقَالَ اللهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ، فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً ، أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ ؟ (٥٢) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) .

شرح المفردات

الرهبة : الخوف ، والدين : الطاعة ، والواصب : الدائم كما قال : « لَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ » وتجأرون : أى تتضرعون لكشفه . وأصل الجؤار : صياح الوحش ثم استعمل فى رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة .

المعنى الجملى

لما بين سبحانه فى الآيات السالفة أن كل ما سواه من جماد وحيوان وإنس وجن وملك ـ منقاد له وخاضع لسلطانه ـ أتبع ذلك بالنهى عن الشرك به ، وبيان أن كل ما سواه فهو ملكه وأنه مصدر النعم كلها ، وأن الإنسان يتضرع إليه إذا مسه

الضر ، فإذا كشفه عنه رجع إلى كفره ، وأن الحياة الدنيا قصيرة الأمد ثم يعلم الكفار حينئذ ما يحل بهم من النكال والوبال جزاء لهم على سيء أعمالهم وقبيح أفعالهم .

الإيضاح

(وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياى فارهبون) أى وقال الله لعباده : لا تتخذوا لى شريكا ولا تعبدوا سواى ، فإنكم إذا عبدتم معى غيرى جعلتموه لى شريكا ، ولا شريك لى ، إنما هو إله واحد ، ومعبود واحد ، وأنا ذاك ، فاتقونى وخافوا عقابى ، بمعصيتكم إياى ، بإشراككم بى غيرى ، أو عبادتكم سواى .

وإنما ذكر العدد مع أن صيغة التثنية مغنية عنه ، للدلالة على أن المنهى عنه هى الاثنينية وأنها منافية للألوهية ، كما أن وصف الإله بالوحدة فى قوله (إنما هو إله واحد) للدلالة على أن المقصود إثبات الوحدانية وأنها من لوازم الألوهية ، أما الألوهية فغير منكرة ولا متنازع فيها .

والخلاصة — إنه تعالى أخبر أنه لا إله إلا هو وأنه لا تنبغى العبادة إلا له وحده .

(وله ما فى السموات والأرض وله الدين واصبا) أى ولله ملك ما فى السموات والأرض من شيء ، لا شريك له فى شيء من ذلك ، وهو الذى خلقهم ، وهو الذى يرزقهم ، وبيده حياتهم وموتهم ، وله الطاعة والإخلاص على طريق الدوام والثبات .

ثم ذكر ما هو كالنتيجة لذلك فقال :

(أفغير الله تتقون) أى أبعد أن علمتم هذا ترهبون غير الله وتحذرون أن يسلبكم نعمة أو يجلب لكم أذى ، أو ينزل بكم نقمة إذا أنتم أخلصتم العبادة لربكم ، وأفردتم الطاعة له ، وما لكم نافع سواه .

وإجمال ذلك — إنكم بعد أن عرفتم أن إله العالم واحد ، وعرفتم أن كل

ما سواه فهو فى حاجة إليه فى وجوده و بقائه ، كيف يعقل أن يكون لامرئ رغبة أو رهبة من غيره ؟

ولما بين أن الواجب ألا يتقى غير الله — ذكر أنه يجب ألا يشكر إلا هو فقال :

(وما بكم من نعمة فمن الله) أى وما بكم من نعمة فى أبدانكم من عافية وصحة وسلامة ، وفى أموالكم من نماء وزيادة ، فالله هو المنعم بها عليكم ، والمتفضل بها لا سواه ، فبيده الخير وهو على كل شىء قدير ، فيجب عليكم أن تشكروه على هذه النعم المتواصلة ، و إحسانه الدائم الذى لاينقطع .

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم		فطالما استعبد الإنسان إحسان

(ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون) أى ثم إذا أصابكم فى أبدانكم سقم ومرض أو حاجة عارضة ، أو شدة وجهد فى العيش ووسائل الحياة ، فإليه تصرخون بالدعاء وتستغيثون به ليكشف ذلك عنكم ، علما منكم أنه لايقدر على إزالة ذلك إلا هو .

(ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون) أى ثم إذا وهب لكم ربكم العافية ، ورفع عنكم ما أصابكم من مرض فى أبدانكم ، أو شدة فى معاشكم بتفريج البلاء عنكم إذا جماعة منكم يجعلون لله شريكا فى العبادة ، فيعبدون الأوثان ، ويذبحون لها الذبائح ، شكرا لغير من أنعم بالفرج ، وأزال من الضر .

ونحو الآية قوله : « وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً » .

قال السيد الألوسى فى تفسيره : وفى الآية ما يدل على أن صنيع العوام اليوم من الجؤار إلى غير الله تعالى ممن لا يملك لهم بل ولا لنفسه نفعاً ولا ضرا — عند إصابة الضر بهم و إعراضهم عن دعائه تعالى بالكلية — سفه عظيم وضلال جديد

لكنه أشد من الضلال القديم ، ومما تقشعر منه الجلود ، لحصوله ممن يؤمن باليوم الموعود .

إن بعض المتشيخين قال لى وأنا صغير : إياك ثم إياك أن تستغيث بالله إذا خطب دهاك ، فإن الله تعالى لا يعجل فى إغاثتك ، ولا يهمه سوء حالتك ، وعليك بالاستغاثة بالأولياء السالفين ، فإنهم يعجلون فى تفريج كربك ، ويهمهم سوء ماحل بك ، فمج ذلك سمعى ، وهمى دمعى ، وسألت الله تعالى أن يعصمنى والمسلمين من أمثال هذا الضلال المبين ، ولكثير من المتشيخين اليوم كلمات مثل ذلك اه .

(ليكفروا بما آتيناهم) أى قيضنا لهم ذلك لتكون عاقبة أمرهم أن يجحدوا نعم الله عليهم ، وأنه هو المسدى لها ، وأنه هو الكاشف للنقم عنهم . وقد فعلوا ذلك لسوء استعدادهم وخبث طويتهم ، وبما ران على قلوبهم من الكفر والعصيان ، فجحدوا فضل الملك الديان ، وإحسان صاحب الطول والإحسان .

ثم توعدهم على سوء صنيعهم وأبان لهم عاقبة أمرهم فقال :

(فتمتعوا فسوف تعلمون) أى فتمتعوا فى هذه الحياة الدنيا إلى أن توافيكم آجالكم ، وتبلغوا الميقات الذى وقت لحياتكم وتمتعكم فيها ، وبعدئذ ستصيرون إلى ربكم ، فتعلمون عند لقائه وبال ما كسبت أيديكم سوء مغبة عملكم ، وتندمون حين لا ينفع الندم .

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ، أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ

فِى التُّرَابِ ؟ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ، وَلِلّٰهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) .

شرح المفردات

تفترون: أى تكذبون ، سبحانه: أى تنزيها له عن النقائص ؛ والبشارة فى أصل اللغة إلقاء الخبر الذى يؤثر فى تغير بشرة الوجه ، ويكون فى السرور والحزن فهو حقيقة فى كل منهما ، وعلى هذا جاءت الآية ، ثم خص فى عرف اللغة بالخبر السارّ ، ويقال لمن لقى مكروها قد اسود وجهه غما وحزنا ، ولمن ناله الفرح والسرور استنار وجهه وأشرق ، والكظيم: الممتلئ غما وحزنا ؛ والكظم مخرج النفس يقال أخذ بكظمه إذا أخذ بمخرج نفسه ، ومنه كظم غيظه أى حبسه عن الوصول إلى مخرج النفس ، ويتوارى: أى يستخفى ؛ وقد كان من عادتهم فى الجاهلية أن يتوارى الرجل حين ظهور آثار الطلق بامرأته ، فإن أخبر بذكر ابتهج ، وإن أخبر بأنثى حزن وبقى متواريا أياما يدبر فيها مايصنع ، ويمسكه: أى يحبسه كقوله (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) والهون : الهوان والذل ، ويدسه : أى يخفيه ، ومثل السوء : أى الصفة السوء ، وهى احتياجهم إلى الولد وكراهتهم للبنات خوف الفقر والعار ، ولله المثل الأعلى: أى الصفة العليا وهى أنه لا إله إلا هو ، وأن له جميع صفات الجلال والكمال .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه سخف أقوال أهل الشرك ، أردف ذلك بذكر قبائح أفعالهم التى تمجها الأذواق السليمة .

الإيضاح

حكى سبحانه بعض قبائح المشركين الذين عبدوا الأوثان والأصنام وعدّد منها:

(١) (ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم) أى ويجعل هؤلاء المشركون

للأصنام التى لا يعلمون منها ضرا ولا نفعا نصيبا مما رزقناهم من الحرث والأنعام وغيرهما مما خلق الله يتقربون به إليها ، وهذا إشراك منهم لما لا يعلمون منه الفائدة بالذى يعلمون أنه الذى هوخلقهم وهوالذى رزقهم وهو الذى ينفعهم وهوالذى يضرهم دون غيره ، وقد سبق تفصيل ذلك فيما حكى الله عنهم فى سورة الأنعام بقوله : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » .

ثم توعدهم على ما فعلوا فقال :

(تالله لتسألن عما كنتم تفترون) أى أقسم لأسألنكم عما افتريتموه واختلقتموه من الباطل ، ولأعاقبنكم على ذلك عقوبة تكون كفاء كفرانكم نعمى ، وافترائكم علىّ

ونحو الآية قوله : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وهذا السؤال إنما هو سؤال تأنيب وتقريع لهم على ما اجترحوا من أقوال وأفعال

(٢) (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون) أى ولقد بلغ من جهل هؤلاء المشركين وعظيم أباطيلهم أن افتروا على من خلقهم ، ودبر شؤونهم ، واستحق شكرهم على جزيل نعمائه — البنات فقالت خزاعة الملائكة بنات الله كما قال عز اسمه : « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً » وعبدوها مع الله وقد أخطئوا فى ذلك خطأ كبيرا وضلوا ضلالا بعيدا ، إذ نسبوا إليه الأولاد ولا أولاد له ، وأعطوه منها أخسها وهى البنات وهم لا يرضونها لأنفسهم ، بل لا يرضون إلا البنين كما قال تعالى : « أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ؟ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى » وقال : « أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ؟ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ » .

والمراد من قوله ولهم ما يشتهون : أنهم يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون من البنات التى نسبوها إلى الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

قال ابن عباس يقول : تجعلون لى البنات ، ترتضونهن لى ولا ترتضونهن لأنفسكم .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب) أى وإذا بشر أحد هؤلاء الذين جعلوا لله البنات بولادة أنثى ظل وجهه مسودا كئيبا من الهم ممتلئا غيظا وحنقا من شدة ما هو فيه من الحزن ، يتوارى من الناس خجلا واستحياء ، ولا يود أن يراه أحد من مساءته بما بشر بها ، ويدور بخلده أحد أمرين : إما أن يمسكها ويبقيها بقاء ذلة وهوان فلا يورثها ولا يعنى بها بل يفضل الذكور عليها ، وإما أن يدسها فى التراب ويدفنها وهى حية ، وذلك هوالوأد المذكور فى قوله تعالى «وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ » .

ومعنى قوله (ألا ساء ما يحكمون) بئس ما قالوا وبئس ماقسموا وبئس مانسبوه إليه ، فإنهم بالغوا فى الاستنكاف من البنت من وجوه :

(١) اسوداد الوجه .

(٢) الاختفاء من القوم من شدة نفرتهم منها .

(٣) إنهم يقدمون على قتلها ووأدها خشية العار أوخوف الجوع والفقر .

ثم جعل تذييلا لما تقدم قوله :

(للذين لايؤمنون بالآخرة مثل السوء) أى للذين لايصدقون بالمعاد والثواب والعقاب من المشركين ، صفة السوء التى هى كالمثل فى القبح من حاجتهم إلى الولد ليقوم مقامهم بعد موتهم ، وتفضيلهم للذكور للاستظهار بهم ، ووأدهم للبنات خشية العار أو الفقر ، وذلك يومئ إلى العجز والقصور والشح البالغ أقصى غاية .

(ولله المثل الأعلى) أى وله تعالى الصفة العليا ، وهى أنه الواحد المنزه عن الولد وأنه لا إله إلا هو ، وله صفات الكمال والجلال من القدرة والعلم والإرادة ونحو ذلك .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو المنيع تكبرا وجلالا لايغلبه غالب ، الحكيم الذى لايفعل إلا ما تقتضيه الحكمة البالغة .

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَاتَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلهِ مَايَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (٦٢) تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) .

شرح المفردات

المراد من الناس: العصاة ، والأجل المسمى: يوم القيامة ، ويجعلون: يثبتون وينسبون إليه ، وما يكرهون: هى البنات ، وتصف ألسنتهم الكذب: أى يكذبون؛ كما يقال عينها تصف السحر أى ساحرة ، وقدّها يصف الهيف أى هى هيفاء ، لاجرم: أى حقا ، مفرطون : أى مقدمون معجل بهم إليها من أفرطته إلى كذا أى قدمته ، ويقال لمن تقدم إلى الماء لإصلاح الدلاء والأرسان فارط وفرط ، وليهم: ناصرهم ومساعدهم ، اليوم : أى فى الدنيا .

المعنى الجملى

لما حكى سبحانه عن المشركين عظيم كفرهم وقبيح أفعالهم — بين هنا حلمه بخلقه مع ظلمهم وأنه يمهلهم بالعقوبة إظهارا لفضله ورحمته ، ولو آخذهم بما كسبت

أيديهم ما ترك على ظهر الأرض دابة ، أما الظالم فبظلمه وأما غيره فبشؤمه كما قال سبحانه : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » لكنه سبحانه يحلم ويستر وينظر إلى أجل مسمى ، ثم سلى رسوله صلى الله عليه وسلم عما كان يناله من أذى عشيرته بأن قومه ليسوا ببدع فى الأمم فقد أرسلنا رسلا إلى أمم من قبلك فكذبوهم فلك بهم أسوة ، فلا يحزنك تكذيبهم ولا تبخع نفسك عليهم أسى وحسرة.

الإيضاح

(ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة) أى ولو يؤاخذ الله عصاة بنى آدم بمعاصيهم ما ترك على ظهر الأرض دابة .

أخرج البيهقى وغيره عن أبى هريرة أنه سمع رجلا يقول : إن الظالم لا يضر إلا نفسه ، فقال لا والله بل إن الحبارى فى وكرها لتموت من ظلم الظالم .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه كاد الجعل (الجعران) يهلك فى جحره بذنب ابن آدم ثم قرأ الآية .

وأخرج أحمد عن أبى هريرة أنه قال : ذنوب ابن آدم قتلت الجعل فى جحره ثم قال إى والله زمن غرق قوم نوح عليه السلام .

(ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) أى ولكن بحلمه يؤخر هؤلاء الظلمة فلا يعاجلهم بالعقوبة إلى أجل سماه الله لعذابهم ، فإذا جاء الوقت الذى وقت لهلاكهم لا يستأخرون عن الهلاك ساعة فيمهلون ولا يستقدمون قبله حتى يستوفوا أعمارهم ، وقد تقدم نظير هذا .

(ويجعلون لله ما يكرهون) أى وينسب هؤلاء المشركون إلى الله سبحانه ما يكرهون لأنفسهم من البنات والشركاء فى الرياسة .

(وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى) أى ويكذبون فيما يدعون إذ يزعمون

أن لهم العاقبة الحسنى عند الله وهى الجنة على تقدير وجودها ، فقد روى أنهم قالوا : إن كان محمد صادقا فى البعث فلنا الجنة بما نحن عليه ، فرد الله عليهم مقالهم بقوله :

(لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون) أى حقا إن لهم النار وليس بعد عذابها عذاب ، وأنه معجل بها إليهم وهم مقدمون لها .

ثم بين سبحانه أن هذا الصنيع الذى صدر من قريش قد حدث مثله من الأمم السالفة فى حق أنبيائهم فقال مسليا رسوله فيما كان يناله من الغم بسبب جهالاتهم .

(تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم) أى والله لقد أرسلنا رسلا من قبلك إلى أممهم بمثل ما أرسلناك به إلى أمتك من الدعاء إلى توحيد الله و إخلاص العبادة له ، وخلع الأنداد والأوثان ، فحسن لهم الشيطان ما كانوا عليه مقيمين من الكفر به وعبادة الأوثان ، فكذبوا رسلهم وردوا عليهم ما جاءوا به من عند ربهم ، وما كان ناصرهم فيما اختاروا إلا الشيطان و بئس الناصر والمعين ، ولهم فى الآخرة عذاب أليم حين ورودهم إلى ربهم ، إذ لا تنفعهم إذ ذاك ولاية الشيطان كما لم تنفعهم فى الدنيا .

ثم ذكر سبحانه أنه ما أهلك من أهلك ، إلا بعد أن أقام الحجة ، وأزاح العلة فقال :

(وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) أى وما أنزلنا عليك كتابنا وما بعثناك به إلى عبادنا إلا لتبين لهم ما اختلفوا فيه من دين الله ، فيعرفوا الحق من الباطل ، وتقيم عليهم حجة الله التى بعثك بها ، وهو هدى للقلوب الضالة ، ورحمة لقوم يؤمنون به فيصدقون بما فيه ، و يقرون بما تضمنه من أمر الله ونهيه و يعملون به .

وخلاصة ذلك — إن هذا الكتاب هو الفاصل بين الناس فيما يتنازعون فيه ، وأنه الهادى لهم إلى سبيل الرشاد .

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩).

شرح المفردات

المراد بحياة الأرض: إنباتها الزرع والشجر وإخراجها الثمر، يسمعون: أى يسمعون سماع تدبر وفهم. قال الفراء والزجاج: النعم والأنعام واحد يذكر ويؤنث، ولهذا تقول العرب هذه نعم وارد، ورجحه ابن العربى فقال إنما يرجع التذكير إلى معنى الجمع والتأنيث إلى معنى الجماعة وقد جاء بالوجهين هنا وفى سورة المؤمنين، والعبرة: الاعتبار والعظة، والفرث: كثيف ما يبقى من المأكول فى الكرش والمعى، خالصا: أى مصفى من كل ما يصحبه من مواد أخرى، سائغا: أى سهل المرور فى الحلق، يقال ساغ الشراب فى الحلق وأساغه صاحبه قال تعالى: «وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ» والسكر: الخمر، والرزق الحسن: الخل والرُّبُّ والتمر والزبيب ونحو ذلك، وأوحى: ألهم وعلم، وبيوتا: أى أوكارا؛ وأصل البيت مأوى الإنسان واستعمل هنا فى الوكر الذى تبنيه النحل لتعسل فيه لما فيه من دقة الصنع وجميل الهندسة، ويعرشون: أى يرفعون من الكروم والسقوف، والسبل: الطرق واحدها سبيل، والذلل واحدها ذلول: أى

منقادة طائعة ، والشراب العسل ، مختلف ألوانه من أبيض إلى أصفر إلى أسود على حسب اختلاف المرعى .

المعنى الجملى

بعد أن وعد المؤمنين بجنات تجرى من تحتها الأنهار ، وأوعد الكافرين بنار تلظى جزاء ما دنسوا به أنفسهم من الإشراك بربهم ونسبة البنات إليه وافترائهم عليه مالم ينزل به سلطانا — عاد إلى ذكر دلائل التوحيد من قِبل أنه قطب الرحى فى الدين الإسلامى وكل دين سماوى ، ويليه إثبات النبوات والبعث والجزاء ، فبين أنه أنزل المطر من السماء لتحيا به الأرض بعد موتها ، وثنى بإخراج اللبن من الأنعام ، وثلّث باتخاذ الخمر والخل والدبس من الأعناب والنخيل ، وربّع بإخراج العسل من النحل وفيه شفاء للناس ، وقد بين أثناء ذلك كيف ألهم النحل بناء البيوت والبحث عن أرزاقها من كل فج .

الإيضاح

(والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون) نبه سبحانه عباده إلى الحجج الدالة على توحيده ، وأنه لا تنبغى الألوهية إلا له ، ولا تصلح العبادة لشىء سواه ، فبين أن ذلك المعبود هو الذى أنزل من السماء مطرا ، فأنبت به أنواعا مختلفة من النبات فى أرض ميتة يابسة ، لا زرع فيها ولا عشب ، إن فى ذلك الإحياء بعد الموت لدليلا واضحا ، وحجة قاطعة على وحدانيته تعالى وعلمه وقدرته لمن يسمع هذا القول سماع تدبر وفهم لما يسمع ، إذ لاعبرة بسماع الآذان ، فهو أشبه بسماع الحيوان .

وبعد أن ذكر نزول الماء من السحاب ذكر خروج اللبن من الضرع ، وفيه أكبر الأدلة على قدرة القادر فقال :

(و إن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين) أى و إن لكم أيها الناس لعظة فى الأنعام دالة على باهر قدرتنا ، و بديع صنعنا ، وواسع فضلنا ، ورحمتنا بعبادنا ، فإننا نسقيكم مما فى بطونها من اللبن الخالص من شائبات المواد الغريبة ، السهل التناول ، اللذيذ الطعم ، وهو متولد من بين فرث ودم .

فان الله جلت قدرته جعل الحيوان يتغذى بما يأ كل من نبات ولحوم ونحوهما حتى إذا هضم المأ كول تحول بإذنه تعالى إلى عصارة نافعة للجسم وفضلات تطرد إلى الخارج ، ومن هذه العصارة يتكون الدم الذى يسرى فى عروق الجسم لحفظ الحياة و بعض هذا الدم يذهب إلى الغدد التى فى الضرع فتحولها إلى لبن ، فكأنّ الصانع الحكيم جعلها مصنعا ومعملا لتحويل الدم إلى لبن ، وهكذا فى الجسم غدد أخرى كالغدد الأنفية للمخاط والغدد الدمعية للعين ، والغدد المنوية التى تحول الدم إلى مادة التلقيح .

و بعد أن ذكر اللبن و بين أنه جعله شرابا سائغا للناس ، ثلّث بذكر ما يتخذ من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب فقال :

(ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا) أى ولكم أيضاً عبرة فيما نسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب مما تتخذونه خمرا وخلا ودبسا (عسل التمر) وتمرا .

روى عن ابن عباس أنه قال : السَّكَر ما حرم من ثمرتيهما ، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما كالخل والرُّب (المربة) والتمر والزبيب ونحو ذلك .

(إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون) أى إن فى ذلك لآية باهرة لمن يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل فى الآيات و يعتبرون بما يستخلص من العبر .

(وأوحى ربك إلى النحل) أى وألهم ربك النحل وألقى فى رُوعها ، وعلمها أعمالا يتخيل منها أنها ذوات عقول .

وقد تتبع علماء المواليد أحوالها وكتبوا فيها المؤلفات بكل اللغات ، وخصصوا لها مجلات تنشر أطوارها وأحوالها ، وقد وصلوا من ذلك إلى أمور :

(١) إنها تعيش جماعات كبيرة قد يصل عدد بعضها نحو خمسين ألف نحلة ، وتسكن كل جماعة منها فى بيت خاص يسمى خلية .

(٢) إن كل خلية يكون فيها نحلة واحدة كبيرة تسمى الملكة أو اليعسوب ، وهى أكبرهم جثة وأمرها نافذ فيهم ، وعدد يتراوح بين أربعمائة نحلة وخمسمائة يسمى الذكور ، وعدد آخر من خمسة عشر ألفا إلى خمسين ألف نحلة ، ويسمى الشغالات أو العاملات .

(٣) تعيش هذه الفصائل الثلاث فى كل خلية عيشة تعاونية على أدق ما يكون نظاما ، فعلى الملكة وحدها وضع البيض الذى يخرج منه نحل الخلية كلها ، فهى أم النحل ، وعلى الذكور تلقيح الملكات وليس لها عمل آخر ، وعلى الشغالة خدمة الخلية وخدمة الملكات وخدمة الذكور ، فتنطلق فى المزارع طوال النهار لجمع رحيق الأزهار ثم تعود إلى الخلية فتفرز عسلا يتغذى به سكان الخلية صغارا وكبارا ، وتفرز الشمع الذى تبنى به بيوتا سداسية الشكل تخزن فى بعضها العسل ، وفى بعض آخر منها تربى صغار النحل ، ولا يمكن المهندس الحاذق أن يبنى مثل هذه البيوت حتى يستعين بالآلات كالمسطرة والفرجار (البرجل) . قال الجوهرى : ألهمها الله أن تبنى بيوتها على شكل مسدس حتى لا يحصل فيه خلل ولا فرجة ضائعة ، كما عليها أن تنظف الخلية وتخفق بأجنحتها لتساعد على تهويتها ، وعليها أيضا الدفاع عن المملكة وحراستها من الأعداء كالنمل والزنابير وبعض الطيور ، ثم فسر سبحانه ما أوحى به إليها بقوله :

(أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون) أى اجعلى لك بيوتا فى الجبال تأوين إليها ، أو فى الشجر أوفيما يعرش الناس ويبنون من البيوت والسقف والكروم ونحوها .

(ثم كلى من كل الثمرات) أى ثم كلى أيتها النحل من كل ثمرة تشتهينها، حلوة أو مزة أو بين ذلك.

(فاسلكى سبل ربك ذللا) أى فاسلكى الطرق التى ألهمك الله أن تسلكيها وتدخلى فيها لطلب الثمار ولا تعسر عليك وإن توعرت، ولا تضلى عن العودة منها وإن بعدت.

وبعد أن خاطب النحل أخبر الناس بفوائدها لأن النعمة لأجلهم فقال:

(يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه) أى يخرج من بطونها عسل مختلف الألوان، فتارة يكون أبيض وأخرى أصفر، وحينا أحمر على حسب اختلاف المرعى.

(فيه شفاء للناس) لأنه نافع لكثير من الأمراض، وكثيرا مايدخل فى تركيب العقاقير والأدوية.

روى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن أخى استطلق بطنه فقال له رسول الله (اسقه عسلا) فسقاه عسلا، ثم جاء فقال يارسول الله: سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا، قال (اذهب فاسقه عسلا) فذهب فسقاه عسلا ثم جاء فقال يا رسول الله ما زاده ذلك إلا استطلاقا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (صدق الله وكذب بطن أخيك اذهب فاسقه عسلا) فذهب فسقاه عسلا فبرئ.

وعلل هذا بعض الأطباء الماضين قال: كان لدى هذا الرجل فضلات فى المعدة، فلما سقاه عسلا تحللت فأسرعت إلى الخروج فزاد إسهاله، فاعتقد الأعرابى أن هذا يضره وهو فائدة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحلل والدفع، وكلما سقاه حدث مثل هذا حتى اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن، فاستمسك بطنه، وصلح مزاجه، وزالت الآلام والأسقام بإرشاده عليه السلام.

وروى البخارى عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« الشفاء فى ثلاثة : فى شرطة مِحجم ، أو شربة عسل ، أو كية بنار ، وأنهى أمتى عن الـكى » .

وقد أثبت الطب الحديث ما للعسل من فوائد أدع الكلام فيها ليتولى شرحها النطاسى الـكبير المرحوم عبـد العزيز إسمـاعيل باشا قال فى كتابه : [الإسلام والطب الحديث] .

ما أصدق الآية الـكريمة! « فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ » إن التركيب الـكيماوى للعسل كما يلى :

من ٢٥ — ٤٠ ٪ دكستروز (جلوكز) .

« ٣٠ — ٤٥ ٪ ليفيلوز .

« ١٥ — ٢٥ ٪ ماء .

والجلوكوز الموجود فيه بنسبة أكثر من أى غذاء آخر ، وهو سلاح الطبيب فى أغلب الأمراض واستعماله فى ازدياد مستمر بتقدم الطب ، فيعطى بالفم وبالحقن الشرجية وتحت الجلد وفى الوريد ، ويعطى بصفته مقويا ومغذيا ، وضد التسمم الناشئ من مواد خارجية كالزرنيخ والزئبق والذهب والـكلوفرم والمورفين الخ ، وضد التسمم الناشئ من أمراض أعضاء الجسم مثل التسمم البولى والناشئ من أمراض الـكبد ، والاضطرابات المعدية والمعوية ، وضد التسمم فى الحميات ، مثل التيفويد والالتهـاب الرئوى والسحائى المخى والحصبة ، وفى حالات ضعف القلب ، وحالات الذبحـة الصدرية ، وبصفة خاصة فى الارتشاحات العمومية الناشئة من التهابات الـكلى الحادة وفى احتقان المخ وفى الأورام المخية الخ .

وقد يقال : وما أهمية هذه الآية مع أن كل أنواع الغذاء لها فوائد ، وقد ذكر العسل لأنه غذاء لذيذ الطعم وبطريق المصادفة .

فالحقيقة هى أن أنواع الغذاء الأخرى لاتستعمل كعلاج إلافيما ندر من الأمراض الناشئة عن نقصها فى الغذاء فقط ، وهذه الفواكه التى تشبه العسل فى الطعم فإن

السكر الذى فيها هو سكر القصب أو أنواع أخرى ، وليس فيها إلا نسبة ضئيلة من (الجلوكوز) الذى هو أهم عناصر العسل .

وإذا علمنا أن الجلوكوز يستعمل مع الأنسولين حتى فى حالة التسمم الناشئ عن مرض البول السكرى — علمنا مقدار فوائده ، وأن القرآن الكريم لم يذكره بطريق المصادفة ، ولكنه تنزيل ممن خلق الإنسان والنحل ، وعلم كلا منهما علاقته بالآخر اه .

كيف يتكون العسل

تمتص الشغالة رحيق الأزهار ، فينزل ويجتمع فى كيس فى بطنها ، وهناك يمتزج بعصارة خاصة فيتحول إلى عسل ، ولله در أبى العلاء إذ يقول :

والنحل يجنى المر من زهر الربا فيعود شهدا فى طريق رضابه

ثم تعود النحلة إلى الخلية فتفرز العسل من فمها فى البيوت الشمعية التى خصصت بتخزين العسل ، وكلما امتلأ بيت منها غطاه النحل بطبقة من الشمع وانتقل إلى بيت آخر .

شمع النحل

تفرز الشغالة صفحات رقيقة صلبة من الشمع تخرجها من بين حلقات بطنها ، ثم تمضغها بفيها حتى تلين ، ويسهل تشكلها على حسب ما تريد ، فتستعملها فى بناء بيوتها السداسية الشكل .

فوائد النحل

(١) تأخذ منها العسل الذى هو غذاء لذيذ الطعم يحوى مقدارا كبيرا من المواد المفيدة للجسم .

(٢) نأخذ منها الشمع الذى تصنع منه شموع الإضاءة .

(٣) تساعد على تلقيح الأزهار فتكون سبباً فى زيادة الثمار وجودة نوعها .

(إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) أى إن فى إخراج الله من بطون النحل الشراب المختلف الألوان وهو شفاء للناس — لدلالة واضحة على أن من سخر النحل ، وهداها لأكل الثمرات التى تأكلها ، واتخاذها البيوت فى الجبال والشجر والعروش ، وأخرج من بطونها ما أخرج مما فيه شفاء للناس ، على أنه هو الواحد القهار الذى ليس كمثله شىء ، وأنه لا ينبغى أن يكون له شريك ، ولا تصح الألوهة إلا له .

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ، فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ، أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)

شرح المفردات

أرذل العمر : أردؤه وأخسه؛ يقال رذل الشىء يرذل رذالة وأرذله غيره قال تعالى حكاية عما قاله قوم شعيب له : « وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ » والحفدة : أولاد الأولاد على ما روى عن الحسن والأزهرى وواحدهم حافد ككتبة وكاتب: من الحفد وهو الخفة فى الخدمة والعمل ؛ يقال منه حفد يحفد حفدا وحفودا وحفدانا : إذا أسرع كما جاء

فى القنوت (و إليك نسعى ونحفد) والطيبات : اللذائذ ، والمراد بالباطل : منفعة الأصنام وبركتها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عجائب أحوال الحيوان ، وما فيها من نعمة للإنسان ؛ كالأنعام التى يتخذ من ضرعها اللبن والنحل التى يشتار منها العسل و يؤخذ منها الشمع للإضاءة ـ أردف ذلك ببيان أحوال الناس ، فذكر مراتب أعمارهم وأن منهم من يموت وهو صغير ، ومنهم من يُعمَّر حتى يصل إلى أرذل العمر و يصير نسَّاء لايحفظ شيئا ، وفى ذلك دليل على كمال قدرة الله ووحدانيته ، ثم ثنى بذكر أعمال أخرى لهم وهى تفضيل بعضهم على بعض فى الرزق ، فقد يرى أكيس الناس وأكثرهم عقلا وفهما يفنى عمره فى طلب القليل من الدنيا وقلّ أن يتيسر له ، بينما نرى أقل الناس علما وفهما تتفتح له أبواب السماء و يأتيه الرزق من كل صوب ، وذلك دليل على أن الأرزاق قد قسمها الخلاق العليم كما قال : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقال الشافعى رحمه الله :

ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ثم ثلث بذكر نعمة ثالثة عليهم ، إذ جعل لهم أزواجا من جنسهم وجعل لهم من هذه الأزواج بنين وحفدة ورزقهم المطعومات الطيبة من النبات كالثمار والحبوب والأشربة ، أو من الحيوان على اختلاف أنواعها .

الإيضاح

(والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) أى والله أوجدكم ولم تكونوا شيئا أنتم ولا آلهتكم التى تعبدونها من دون الله ، ثم وقت أعماركم بآجال مختلفة فمنكم من تعجل وفاته ، ومنكم من يهرم و يصير إلى أرذل العمر وأخسه ، فتنقص قواه

وتفسد حواسه ويكون فى عقله وقوته كالطفل كما قال : « وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ » .

أخرج البخارى وابن مردويه عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دعائه : « أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات » وثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ بالله أن يرد إلى أرذل العمر ، ونقل عن على كرم الله وجهه أن أرذل العمر خمس وسبعون سنة ، وهذا ليس بالمطرد ولا بالكثير .

(لكى لا يعلم من بعد علم شيئا) أى إنما رده إلى أرذل العمر ليعود جاهلا كما كان حين طفولته وصباه لا يعلم شيئا مما كان يعلمه فى شبابه ، لأن الكبر قد أضعف عقله وأنساه ، فلا يعلم شيئا مما كان يعلم ، وقد انسلخ من عقله بعد أن كان كامل العقل .

وخلاصة ذلك — إنه يكون نسّاء ، فإذا كسب علما فى شىء لم يلبث أن ينساه ويزول من ساعته ، فيقول لك من هذا ؟ فتقول له هذا فلان ، فلا يمكث إلا هنيهة ثم يسألك عنه مرة أخرى .

(إن الله عليم قدير) أى إن الله عليم بكل شىء ، فيعلم وجه الحكمة فى الخلق والتوفى والرد إلى أرذل العمر ، ولا ينسى شيئا من ذلك ، وهو قدير على كل شىء فلا يعجزه شىء أراده .

ومجمل القول — إن ما يعرض فى الهرم من ضعف القوة والقدرة وانتفاء العلم يتنزه عن مثله المولى جل شأنه ، فهو كامل العلم تام القدرة لا يتغير شىء منهما بمرور الأزمنة كما يتغير علم البشر وقدرتهم .

ولما ذكر سبحانه تفاوت الناس فى الأعمار ذكر تفاوتهم فى الأرزاق فقال :

(والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق) أى والله تعالى جعلكم متفاوتين فى أرزاقكم ، فمنكم الغنى ومنكم الفقير ، ومنكم المملوك ومنكم المالك ، وأعطاكم من الرزق أكثر مما أعطى مماليككم ، ولم يجعل ذلك بحسن الحيلة وفضل العقل ، فكثيرا

ما ترى الحُوَّل القلَّبَ لايحصل إلا على الكفاف من الرزق بعد الجهد الجهيد ، بينما ترى الأحمق يتقلب فى نعيم العيش وزخرف الدنيا ، ولله درّ سفيان بن عيينة إذ يقول:

كم من قوىٍّ قوىٍّ فى تقلبه مهذّب الرأى عنه الرزق منحرف
ومن ضعيفٍ ضعيفُ العقل مختلط كأنه من خليج البحر يغترف

(فما الذين فضّلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء) أى فما الذين فضلوا بالرزق وهم الموالى بجاعلى رزقهم من الأموال وغيرها ـ شركة بينهم و بين مماليكهم بحيث يساوونهم فى التصرف فيها و يشاركونهم فى تدبيرها .

والخلاصة — إن الله جعلكم متفاوتين فى الرزق ، فرزقكم أكثر مما رزق مماليككم وهم بشر مثلكم و إخوانكم ، فكان ينبغى أن تردوا فضل مارُزقتموه عليهم وتتساووا و إياهم فى الملبس والمطعم والمسكن ، لكنكم لم ترضوا بهذه المساواة مع أنهم أمثالكم فى البشرية والمخلوقية لله عز وجل ، فما بالكم تشركون بالله فيما يليق إلا به من الألوهية والمعبودية بعض عباده بل أخس مخلوقاته .

وهذا مثل ضربه الله سبحانه لبيان قبح ما فعله المشركون من عبادة الأصنام والأوثان تقربا لهم .

ونحو الآية قوله : « هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ؟ » .

(أفبنعمة الله يجحدون ؟) إذ أضافوا بعض تلك النعم الفائضة عليهم من مولاهم إلى شركائهم وجعلوها أندادا لله ، وهى لاتملك لنفسها نفعا ولا ضرا .

ثم ذكر ضربا آخر من ضروب نعمه على عباده تنبيها إلى جليل إنعامه بمثل تلك النعم التى هى زينة الحياة فقال :

(والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) أى والله سبحانه جعل لكم أزواجا من جنسكم تأنسون بهن وتقوم بهن جميع مصالحكم

وتدبير معايشكم ، وجعل لكم منهن بنين وحفدة أى أولاد أولاد يكونون زهرة الحياة الدنيا وزينتها ، وبهم التفاخر والتناصر والمساعدة لدى البأساء والضراء .

(ورزقكم من الطيبات) أى ورزقكم من لذيذ المطاعم والمشارب وجميل الملابس والمساكن مما تتذوقون فيه إلى أقصى الحدود وأبلغ الغايات .

(أفبالباطل يؤمنون) أى إنهم بعد هذا البيان الواضح والدليل الظاهر يوقنون بأن الأصنام شركاء لربهم تنفعهم وتضرهم وتشفع لهم عنده ، وأن البحائر والسوائب والوصائل حرام عليهم كما حرمها لهم أولياء الشيطان .

وليس بعد هذا تأنيب وتوبيخ ، إذ ساقه مساق ما فيه الشك وطلب الجواب منهم عنه .

(وبنعمة الله هم يكفرون؟) أى وبهذه النعم المتظاهرة عليهم من ربهم يكفرون فيضيفونها إلى غير الخالق وينسبونها إلى غير موجدها من صنم أو وثن ؟.

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلاَ تَضْرِبُوا لِلّٰهِ الْأَمْثَالَ ، إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٧٤) ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ يَسْتَوُونَ ؟ الْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦)

شرح المفردات

رزق السماء : هو المطر ، ورزق الأرض : النبات والثمار التى تخرج منها ، فلا تضربوا لله الأمثال : أى لاتجعلوا له الأنداد والنظراء فهو كقوله : « فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا » وضرب المثل للشىء : ذكر الشبيه له ليوضح حاله المبهمة ويزيل ما عرض من الشك فى أمره ، والبكم إما ناشىء من صمم خلق وإما لسبب عارض ولا علة فى أذنيه فهو يسمع لكن لسانه معتقل لايطيق الكلام ، فكل من ولد غير سميع فهو أبكم ، لأن الكلام بعد السماع ولا سماع له ، وليس كل أبكم يكون أصم صمما طبيعيا ، فإن بعض البُكم لا يكونون صما ، والكَلّ : الغليظ الثقيل من قولهم كلّت السكين إذا غلظت شفرتها فلم تقطع ، وكل عن الأمر: ثقل عليه فلم يستطع عمله يوجهه : أى يرسله فى وجه معين من الطريق ، يقال وجهته إلى موضع كذا فتوجه إليه ، على صراط مستقيم : أى طريق عادل غير جائر .

المعنى الجملى

بعد أن بين عزت قدرته دلائل التوحيد البيان الشافى فيما سلف ـ أردف ذلك بالرد على عابدى الأوثان والأصنام ، فضرب لذلك مثلين يؤكد بهما إبطال عبادتها: أولهما العبد المملوك الذى لايقدر على شىء ، والحر الكريم الغنى الكثير الإنفاق سرا وجهرا ، ولفت النظر إلى أنهما هل يكونان فى نظر العقل سواء مع تساويهما فى الخلق والصورة البشرية ؟ وإذا امتنع ذلك فكيف ينبغى أن يسوى بين القادر على الرزق والإفضال ، والأصنام التى لاتملك ولا تقدر على النفع والضر .

والثانى مثل رجلين أحدهما أبكم عاجز لايقدر على تحصيل خير وهو عبء ثقيل على سيده ، وثانيهما حوّل قلّب ناطق كامل القدرة ، أيستويان لدى أرباب الفكر مع استوائهما فى البشرية ؟ وإذا فكيف يدور بخلد عاقل مساواة الجماد برب العالمين فى الألوهية والعبادة ؟.

قال ابن عباس نزلت هذه الآية فى عثمان بن عفان ومولى له كافر يسمى أسيد ابن أبى العاص كان يكره الإسلام وكان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المئونة وكان الآخر ينهاه عن الصدقة والمعروف .

الإيضاح

(ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون) أى ويعبد هؤلاء المشركون بالله من دونه أوثانا لا تملك لهم رزقا من السموات ، فلا تقدر على إنزال القطر منها لإحياء الميت من الأرضين ، ولا تملك لهم رزقا منها فلا تقدر على إخراج شىء من نباتها ولا ثمارها ، ولا على شىء مما ذكر فى سالف الآيات مما أنعم الله به على عباده ، ولا يستطيعون أن يملكوا ذلك ولا يمكنهم .

وفائدة قوله (ولا يستطيعون) أن من لا يملك شيئا قد يكون فى استطاعته أن يتملكه بوجه ، فبين بذلك أن هذه الأصنام لا تملك وليس فى استطاعتها تحصيل الملك .

وبعد أن بين ضعفها وعجزها رتب على ذلك ما هو كالنتيجة له فقال :

(فلا تضربوا لله الأمثال) أى فلا تجعلوا لله مثلا ولا تشبهوه بخلقه ، فإنه لا مثل له ولا شبيه .

أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قال فى الآية : أى لا تجعلوا معى إلها غيرى فإنه لا إله غيرى .

ثم هددهم على عظيم جرمهم وكبير ما اجترحوا من الكفر والمعاصى فقال :

(إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) أى إن الله يعلم كنه ما تفعلون من الاجرام وعظيم الآثام وهو معاقبكم عليه أشد العقاب ، وأنتم لا تعلمون حقيقته ولا مقدار عقابه ، ومن ثم صدر ذلك منكم وتجاسرتم عليه ونسبتم إلى الأصنام ما لم يصدر منها ولا هى منه فى قليل ولا كثير .

وبعد أن نهاهم عن الإشراك عقبه بمثل يكشف عن فساد ما ارتكبوه من الحماقات والجهالات فقال :

(ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون) أى إن مثلكم فى إشراككم بالله الأوثان مثل من سوّى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف ، وحرّ مالك مالا ينفق منه كيف يشاء ويتصرف فيه كما يريد ، والفطرة الأولى تشهد بأنهما ليسا سواء فى التجلة والاحترام مع استوائهما فى الخلق والصورة — فكذلك لا ينبغى لعاقل أن يسوى بين الإله القادر على الرزق والإفضال والأصنام التى لا تملك ولا تقدر على شىء البتة .

ثم ذكر ما هو كالنتيجة لما سلف فقال :

(الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) أى الحمد الكامل لله خالصا دون ماتدعون من دونه من الأوثان ، فإياه فاحمدوا دونها ، ما الأمر كما تفعلون ولا القول كما تقولون ، فليس للأوثان عندكم من يد ولا معروف فتحمد عليه ، إنما الحمد لله ولكن أكثر هؤلاء الكفار الذين يعبدونها لايعلمون أن ذلك كذلك ، فهم بجهلهم بما يأتون وما يذرون يجعلونها لله شركاء فى العبادة والحمد .

ثم ضرب مثلا آخر يدل على ما يدل عليه المثل السابق على وجه أظهر وأوضح فقال :

(وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كلّ على مولاه أينما يوجهه لايأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم؟) أى ضرب الله مثلا لنفسه والآلهة التى يعبدونها من دونه مثل رجلين أحدهما أخرس أصم لا يُفهم ولا يَفهم ، لا يقدر على شىء مما يتعلق بنفسه أو بغيره لسوء فهمه وإدراكه ، وهو عيال على من يعوله ويلى أمره ، حيثما يرسله مولاه فى أمر لا يأت

بنجح ولا كفاية مهمّ — وثانيهما رجل سليم الحواس عاقل ينفع نفسه و ينفع غيره ، يأمر الناس بالعدل وهو على سيرة صالحة ودين قويم — هل يستويان ؟

كذلك الصنم لا يسمع شيئا ولا ينطق لأنه إما خشب منحوت وإما نحاس مصنوع لا يقدر على نفع من خدمه ولا دفع ضر عنه ، وهو كلّ على من يعبده ، يحتاج أن يحمله و يضعه و يخدمه ، وهو لا يعقل ما يقال له فيأتمر بالأمر ، ولا ينطق فيأمر وينهى ، هل يستوى هو ومن يأمر بالحق ويدعو إليه وهو الله الواحد القهار الذى يدعو عباده إلى توحيده وطاعته ! وهو مع أمره بالعدل على طريق مستقيم لا يعوج عن الحق ولا يزول عنه .

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩)

شرح المفردات

الساعة: الوقت الذى تقوم فيه القيامة ، سميت بذلك لأنها تفجأ الإنسان فى ساعة ما فيموت الخلق بصيحة واحدة ، ولمح : البصر رجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها ، والأفئدة واحدها فؤاد وهى القلوب التى هيأها الله للفهم و إصلاح البدن ، والجو : الهواء بين الأرض والسماء .

المعنى الجملى

بعد أن مثل سبحانه نفسه بمن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ، ومستحيل أن يكون كذلك إلا إذا كان كامل العلم والقدرة — أردف ذلك بما يدل على كمال علمه ، فأبان أن العلم بغيوب السموات والأرض ليس إلا له ، وبما يدل على كمال قدرته فذكر أن قيام الساعة فى السرعة كلمح البصر أو أقرب ، ثم عاد إلى ذكر الدلائل على توحيده وأنه الفاعل المختار، فذكر منها خلق الإنسان فى أطواره المختلفة ، ثم الطير المسخر بين السماء والأرض ، وكيف جعله يطير بجناحين فى جو السماء ما يمسكه إلا هو بكامل قدرته .

الإيضاح

(ولله غيب السموات والأرض) أى ولله علم ما غاب عن أبصاركم فى السموات والأرض مما لا اطلاع لأحد عليه إلا أن يطلعه الله ، والمراد به جميع الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين التى لا سبيل إلى إدراكها حسا ولا إلى فهمها عقلا .

(وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب) أى وما شأنها فى سرعة المجىء إلا كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها ، أو هو أقرب من هذا وأسرع ، لأنه إنما يكون بقول (كن فيكون) .

ونحو الآية قوله «وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ» أى فيكون ما يريد كطرف العين ، وقريب من هذا قوله « مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » .

والخلاصة — إن قيام القيامة ومجىء الساعة التى ينتشر فيها الخلق للوقوف فى موقف الحساب — كنظرة من البصر وطرفة من العين فى السرعة .

وخص قيام الساعة من بين الغيوب ، لأنه قد كثرت فيه المماراة فى جميع

الأزمنة والعصور، ولدى كثير من الأمم، فأنكره كثير من البشر وجعلوه مما لا يدخل في باب الممكنات .

ثم ذكر ما هو كالبرهان على إمكان حدوثها وسرعة وقوعها فقال :

(إن الله على كل شيء قدير) أي إن الله قادر على ما يشاء ، لا يمتنع عليه شيء أراده ، فهو قادر على إقامتها في أقرب من لمح البصر .

ثم ذكر سبحانه مننه على عباده بإخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا ، ثم رزقهم السمع والأبصار والأفئدة فقال :

(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) أي والله جعلكم تعلمون ما لا تعلمون بعد أن أخرجكم من بطون أمهاتكم ، فرزقكم عقولا تفقهون بها وتميزون الخير من الشر والهدى من الضلال والخطأ من الصواب ، وجعل لكم السمع الذي تسمعون به الأصوات ،فيفقه بعضكم عن بعض ما تتحاورون به بينكم ، والأبصار التي تبصرون بها الأشخاص فتتعارفون بها وتميزون بعضها من بعض ، والأشياء التي تحتاجون إليها في هذه الحياة ، فتعرفون السبل وتسلكونها للسعي على الأرزاق والسلع لتختاروا الجيد وتتركوا الرديء ، وهكذا جميع مرافق الحياة ووجوهها .

(لعلكم تشكرون) أي رجاء أن تشكروه باستعمال نعمه فيما خلقت لأجله ، وتتمكنوا بها من عبادته تعالى ، وتستعينوا بكل جارحة وعضو على طاعته .

روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «يقول الله تعالى : من عادى لي وليا فقد بارزني بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، و بصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن دعاني لأجبته ، ولئن استعاذني لأعيذنّه ، وما ترددتُ في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت

وأكره مساءته ، ولابد له منه » أى إن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل ، فلا يسمع إلا لله ، ولا يبصر إلا لله أى لما شرعه الله له ، ولا يبطش ولا يمشى إلا فى طاعته عز وجل ، مستعينا به فى ذلك كله .

ثم نبه عباده إلى دليل آخر على كمال قدرته فقال :

(ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله) أى ألم ينظروا إلى الطير مذللات فى الهواء بين السماء والأرض ما يمسكهن فى الجو عن الوقوع إلا الله عز وجل بقدرته الواسعة ، وقد كان فى ثقل جسدها ، ورقة الهواء مايقتضى وقوعها إذ لاعلاقة من فوقها ، ولا دعامة من تحتها ، ولو سلبها ما أعطاها من قوة الطيران لم تقدر على النهوض ارتفاعا ، وقد كان العلماء قديما يعلمون تخلخل الهواء فى الطبقات العالية فى الجو وهى نظرية لم تدرس فى العلوم الطبيعية إلا حديثا ، فقد أثر عن كعب الأحبار أنه قال : إن الطير يرتفع فى الجو اثنى عشر ميلا ولا يرتفع فوق ذلك .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) أى إن فى ذلك التسخير فى الجو والإمساك فيه — لدلالات على أن لاإله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنه لاحظ للأوثان والأصنام فى الألوهية — لمن يؤمن بالله ، ويقر بوجدان ما تعاينه أبصارهم ، وتحسه حواسهم .

وخصص هذه الآيات بالمؤمنين ، لأنهم هم المنتفعون بها ، وإن كانت هى آيات لجميع العقلاء .

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ،

وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ، كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)

شرح المفردات

سكنا أى مسكنا ، والظعن (بالسكون والفتح) السير فى البادية لنُجْعة أو طلب ماء أو مرتع ، والأصواف : للضأن ، والأوبار : للإبل ، والأشعار : للمعز ، والأثاث: متاع البيت كالفرش والثياب وغيرها ، ولا واحد له من لفظه ، والمتاع : ما يتمتع وينتفع به فى المُتّجر والمعاش ، إلى حين: أى إلى انقضاء آجالكم ، والظلال: مايستظل به من الغمام والشجر والجبال وغيرها ، والأكنان واحدها كن : وهو الغار ونحوه فى الجبل ، والسرابيل واحدها سربال: وهو القميص من القطن والكَتّان والصوف وغيرها ، وسرابيل الحرب الجواشن والدروع ، والبأس: الشدة ، ويراد به هنا الحرب.

المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الأدلة على توحيده . قفى على ذلك بذكر ما أنعم به على عباده ، فجعل لهم بيوتا يأوون إليها وتكون سكنا لهم ، وجعل لهم من جلود الأنعام بيوتا يستخفون حملها فى أسفارهم ، ويجعلونها خياما فى السفر والحضر ، وجعل لهم فى الجبال الحصون والمعاقل ، وجعل لهم الثياب التى تقيهم الحر ، والدروع والجواشن من الحديد لتقى بعضهم أذى بعض فى الحرب .

وقصارى هذا — إنه امتن على عباده ، فبدأ بما يخص المقيمين بقوله : وجعل لكم من بيوتكم سكنا ، ثم بما يخص المسافرين منهم ممن لهم قدرة على ضرب الخيام بقوله : وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا ، ثم بمن لاقدرة لهم على ذلك ولا يأويهم

إلا الظلال بقوله ، وجعل لكم مما خلق ظلالا ، ثم بما لابد منه لكل أحد بقوله : وجعل لكم سرابيل الخ ، ثم بما لا غنى عنه فى الحروب بقوله : وسرابيل تقيكم بأسكم .

الايضاح

(والله جعل لكم من بيوتكم سكنا) أى والله الذى جعل لكم من بيوتكم التى هى من الحجر والمدر مسكنا تقيمون فيه وأنتم فى الحضر .

(وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم) أى وجعل لكم قبابا وفساطيط من شعر الأنعام وأصوافها وأوبارها ، تستخفون حملها يوم ترحالكم من دوركم و بلادكم وحين إقامتكم بها

(ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين) أى وجعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز أثاثا لبيوتكم تكتسون به وتستعملونه فى الغطاء والفراش ، ومتاعا من مال وتجارة إلى أجل مسمى ، وهو حين انقضاء آجالكم .

(والله جعل لكم مما خلق ظلالا) أى ومن نعمه تعالى عليكم أن جعل لكم مما خلق من الأشجار وغيرها ظلالا تستظلون بها من شديد الحر .

(وجعل لكم من الجبال أكنانا) أى وجعل لكم من الجبال مواضع تستكنون فيها كالمغارات والكهوف ونحوها .

(وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر) أى وجعل لكم ثيابا من القطن والكتان والصوف ونحوها تقيكم الحر الشديد الذى فى بلادكم وهو مما يذيب دماغ الضبّ حين حمارّة القيظ .

(وسرابيل تقيكم بأسكم) أى وجعل لكم دروعا وجواشن تقيكم بأس السلاح وأذاه حين الحرب وحين يتقدم القِرْن إلى قرنه للمصاولة والطعن والضرب والرمى بالنبال .

تنبيه — لما كانت بلاد العرب شديدة الحر وحاجتهم إلى الظل ألزم ذكر هذا فى معرض النعم العظيمة ، إلى أن ما يقى من الحريق من البرد أيضا فكان ذكر أحدهما مغنيا عن ذكر الآخر ، قال الشهاب الخفاجى فى الريحانة : فى الآية نكتة لطيفة لم ينبهوا عليها وهى أنه إنما اقتصر على الحر لأنه أهم هنا لما عرف من غلبة الحر على ديار العرب ، ثم إن ما يقى الحر يحصل به برودة فى الهواء فى الجملة ، فوقاية الحر إنما هى لتحصيل البرد ، وهذا فيه من اللطف ماهو ألطف من النسيم، فلله در التنزيل فكم فيه من أسرار لاتتناهى اهـ .

(كذلك يتم نعمته عليكم) أى كما خلق هذه الأشياء لكم وأنعم بها عليكم ، يتم نعمة الدنيا والدين عليكم ويجعلكم ملوكا وأمراء فيما تفتحون من البلاد والأصقاع ويجعل رائدكم فيما تعملون وجه الله وإصلاح الأمم والشعوب كما قال : « وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » .

(لعلكم تسلمون) أى توقعا للنظر فيما أسبغ عليكم من النعم ، فتعرفون حق المنعم بها فتؤمنون به وحده وتذرون ما أنتم به مشركون فتسلمون من عذابه ، فإن العاقل إذا أسدى إليه المعروف شكر من أنعم به عليه كما قال المتنبى :

وقيّدت نفسى فى ذراك محبّة ومن وجد الإحسان قيدا تقيّدا

وبعد أن عدد ما أنعم به عليهم من النعم ذكر ما يتبع معهم إذا هم أصروا على عنادهم واستكبارهم ولم تنفعهم الذكرى فقال :

(فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين) أى فإن استمروا على إعراضهم ولم يقبلوا ما ألقى إليهم من البينات فلا يضيرك ذلك ، ولا تبخع نفسك عليهم أسى وحسرة ، فإنك قد أديت رسالتك كاملة غير منقوصة ، وما هى إلا البلاغ الموضح لمقاصد الدين وبيان أسراره وحكمه ، وقد فعلته بما لامزيد عليه .

وجملة القول — إنهم إن أعرضوا وتولوا فلست بقادر على خلق الإيمان فى قلوبهم فإنما عليك البلاغ فحسب .

ثم بين أن سبب هذا التولى والإعراض لم يكن الجهل بهذه النعم بل كان العتو والاستكبار والإنكار لها فقال :

(يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) أى إنهم يعرفون أن هذه النعم كلها من الله ثم هم ينكرونها بأفعالهم ، إذ لم يخصوا المنعم بها بالعبادة والشكر ، بل شكروا غيره معه ، إذ قالوا إن هذه النعم إنما حصلت بشفاعة هذه الأصنام .

(وأكثرهم الكافرون) أى إن أكثرهم جاحد معاند يعلم صدق الرسول ولا يؤمن به عتوا واستكبارا ، وقليل منهم كان يجهل صدقه ولم يظهر له كونه نبيا حقا من عند الله ، لأنه لم ينظر فى الأدلة النظر الصحيح الذى يؤدى إلى الغاية ، أو لم يعرف الحق لنقص فى العقل فهو لايسلك سبيله ، أو لم يصل حد التكليف فلا تقوم عليه حجة .

وهذا من صادق أحكام القرآن على الأمم والشعوب ، فهو لا يرسل القول إرسالا بل يزنه بميزان الحقيقة الواقعة التى لاتجانف الصواب وليس فيها جور ولا ظلم .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ(٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ(٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ(٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا

عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)

شرح المفردات

الأمة : الجيل من الناس، وشهيد كل أمة نبيها ، ثم لا يؤذن للذين كفروا : أى إنهم يستأذنون فلا يؤذن لهم ، ويقال استعتبه وأعتبه: إذا رضى عنه ، قال الخليل : العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة ؛ وعاتبه معاتبة وعتابا وأعتبه : سره بعد ما ساءه ، ينظرون : أى يمهلون ويؤخرون ، والشركاء : الأصنام والأوثان والشياطين والملائكة ، وندعو : نعبد ، والسلم : الاستسلام والانقياد ، وضل : ضاع وبطل والمراد بهؤلاء أمته الحاضر منهم عصر التنزيل وغيرهم إلى يوم القيامة ، وتبيانا : أى بيانا لأمور الدين إما نصا فيها أو ببيان الرسول واستنباط العلماء المجتهدين فى كل عصر.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال هؤلاء المشركين وأنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها ــ قفى على ذلك بوعيدهم فذكر حالهم يوم القيامة ، وأنهم يكونون أذلاء لا يؤذن لهم فى الكلام لتبرئة أنفسهم ولا يمهلون ، بل يؤخذون إلى العذاب بلا تأخير ، وإذا رأوا معبوداتهم من الأصنام والأوثان والملائكة والآدميين قالوا هؤلاء معبوداتنا ، فكذبتهم تلك المعبودات واستسلموا لربهم وانقادوا له وبطل ما كانوا يفترونه ، ثم ذكر ذلك اليوم وهوله وما منح نبيه من الشرف العظيم وأنه أنزل عليه الكتاب ليبين للناس ما أشكل عليهم من مصالح دينهم ودنياهم ، ويهديهم سواء السبيل وفيه البشرى للمؤمنين بجنات النعيم .

الإيضاح

(ويوم نبعث من كل أمة شهيدا) أى وخوّف أيها الرسول هؤلاء المشركين يوم نبعث من كل أمة شاهدا عليها بما أجابت داعى الله وهو رسولها الذى أرسل إليها ، إما بالإيمان وطاعة الله ، وإما بالكفر والعصيان .

(ثم لا يؤذن للذين كفروا) أى ثم لا يسمع كلام الكافرين بعد شهادة أنبيائهم ولا يلتفت إليه ، إذ فى تلك الشهادة ما يكفى للفصل فى أمرهم والقضاء عليهم ، والله عليم بما كانوا يفعلون ، ولكن فى تلك الشهادة تأنيب لهم وتوبيخ على ما اجترحوا من الفسوق والعصيان والكفر بربهم الذى أنعم عليهم .

ونحو الآية قوله : « هَذَا يَوْمُ لاَ يَنْطِقُونَ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » .

(ولا هم يستعتبون) أى ولا يطلب منهم أن يزيلوا عتب ربهم أى غضبه بالتوبة وصالح العمل ، فالآخرة دار جزاء لا دار عمل ، والرجوع إلى الدنيا مما لا يكون بحال .

(وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون) أى وإذا عاين هؤلاء الذين كذبوا وجحدوا نبوّة الأنبياء وهم من كانوا على نهج قومك من المشركين ـ عذاب الله فلا ينجيهم منه شىء ، إذ لا يؤذن لهم بالاعتذار فيعتذرون ، فيخفف عنهم بهذا العذر الذى يدعون ، ولا يرجئون بالعقاب ، لأن وقت التوبة والإنابة قد فات ، وإنما ذاك وقت الجزاء على الأعمال : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

ونحو الآية قوله : « وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً » وقوله : « إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيرًا ، وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ، لاَ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً » ، الثبور : الهلاك .

ثم أخبر عن إلقاء المشركين تبعة أعمالهم على معبوداتهم فقال :

(وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك) أى وإذا رأى هؤلاء المشركون بالله يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله من الأوثان والآلهة التى عبدوها ـ قالوا هؤلاء شركاؤنا فى الكفر بك ، والذين كنا ندعوهم آلهة من دونك ، وربما يكونون قد قالوا هذه المقالة طمعا فى توزيع العذاب بينهم ، أو إحالة الذنب على الشركاء تعللا بذلك واسترواحا مع كونهم يعلمون أن العذاب واقع بهم لامحالة ، ولكن الغريق يتعلق بكل ما تقع يده عليه .

ثم ذكر تبرأ آلهتهم منهم ، وهم أحوج ما يكونون إلى نصرتهم لو كانوا ينصرون .

(فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون) أى قالت لهم الآلهة : كذبتم مانحن أمرناكم بعبادتنا ، ونحو الآية قوله : « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لايَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ، وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ » وقوله : « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ، كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » .

(وألقوا إلى الله يومئذ السلم) أى واستسلم العابد والمعبود لله ، فلا أحد إلا وهو سامع مطيع ، ونحو الآية قوله : « أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا » أى ما أسمعهم وأبصرهم حينئذ ، وقوله : «وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا » وقوله : « وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ » أى خضعت واستسلمت .

(وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى وذهب عنهم ما كانوا يعبدونه افتراء على الله ، فلا ناصر ولا معين ولا شفيع ولا ولى مما كانوا يزعمونه فى الدنيا كما قال حكاية عنهم : « هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ » .

(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا

يفسدون) أى الذين جحدوا نبوّتك وكذبوك فيما جئتهم به من عند ربك، وصدوا عن الإيمان بالله ورسوله مَن أراده، زدناهم عذابا فوق عذابهم الذى يستحقونه بكفرهم، بسبب استمرارهم على الإفساد بالصد عن سبيل الله.

وخلاصة ذلك — إنهم يعذبون عذابين: عذابا على الكفر، وعذابا على الإضلال وصد الناس عن اتباع الحق، ونحو الآية قوله: (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ) أى وهم ينهون الناس عن اتباعه، وهم يبتعدون منه أيضا، روى الحاكم والبيهقى وغيرهم عن ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إن أهل النار إذا جزعوا من حرها استغاثوا بضحضاح فى النار، فإذا أتوه تلقاهم عقارب كأنهن البغال الدهم، وأفاعٍ كأنهن البخاتى (أنواع من ضخام الإبل) تضربهم فذلك الزيادة».

وفى الآية دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ودرجاتهم فيها.

ثم خاطب سبحانه عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم فقال:

(ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء) أى واذكر أيها الرسول ذلك اليوم وهوله يوم يبعث الله نبى كل أمة شاهدا عليهم، فيكون أقطع للمعذرة، وأظهر فى إتمام الحجة عليهم، وجئنا بك شهيدا على أمتك الذين أرسلتك إليهم، بما أجابوك وبما عملوا فيما أرسلتك به إليهم.

وهذه الآية شبيهة بالآية التى انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم صدر سورة النساء، فلما وصل إلى قوله «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا» قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «حسبك» فقال ابن مسعود فالتفت فإذا عيناه تذرفان.

(ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) أى ونزلنا عليك أيها الرسول هذا القرآن تبيانا لكل ما بالناس إليه حاجة من معرفة

الحلال والحرام والثواب والعقاب ، وهدى من الضلالة ورحمة لمن صدق به وعمل بما فيه من حدود الله وأمره ونهيه ، فأحل حلاله وحرم حرامه ، وبشرى لمن أطاع الله وأناب إليه بجزيل الثواب فى الآخرة وعظيم الكرامة .

ووجه ارتباط هذا بما قبله بيان أن الذى فرض عليك تبليغ الكتاب الذى أنزله عليك ، سائلك يوم القيامة عن ذلك كما قال : فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ » وقال « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وقال « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ » أى إن الذى أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه وسائلك عن أداء ما فرض عليك .

وتبيان القرآن لأمور الدين إما مباشرة وإما ببيان الرسول ، وقد أمرنا باتباع هذا البيان فى قوله « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » وقوله « لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » ولقوله صلى الله عليه وسلم : « إنى أوتيت القرآن ومثله معه » وإما ببيان الصحابة والعلماء المجتهدين له ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ » وقد كان كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم فاجتهد الأئمة ووطئوا طرق البحث فى أمور الدين لمن بعدهم ، واستنبطوا من الكتاب والسنة مذاهب وآراء فى العبادات ومعاملات الناس بعضهم مع بعض ، ودونوا تشريعا ينهل منه المسلمون فى كل جيل ويرجع إليه القضاة ليحكموا بين الناس بالعدل ، وكان أجل تشريع أخرج للناس كما اعترف بذلك أرباب الديانات الأخرى ومن لم يتدين منهم بدين .

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ

عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ، إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَاتَفْعَلُونَ (٩١) وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣)

شرح المفردات

العدل لغة : المساواة فى كل شىء من غير زيادة ولا غلو ولا نقصان فيه ولا تقصير، والمراد به هنا المكافأة فى الخير والشر ، والإحسان : مقابلة الخير بأكثر منه ، والشر بالعفو عنه ، و إيتاء ذى القربى : أى إعطاء الأقارب حقهم من الصلة والبر ، والفحشاء: ما قبح من القول والفعل ، فيدخل فيه الزنا وشرب الخمر والحرص والطمع والسرقة ونحو ذلك من الأقوال والأفعال المذمومة ، والمنكر: ماتنكره العقول من دواعى القوة الغضبية كالضرب الشديد والقتل والتطاول على الناس ، والبغى : الاستعلاء على الناس والتجبر عليهم بالظلم والعدوان ، والوعظ : التنبيه إلى الخير بالنصح والإرشاد ، والعهد: كل مايلتزمه الإنسان باختياره ، و يدخل فيه الوعد ، ونقض اليمين: الحنث فيها وأصله فك أجزاء الجسم بعضها من بعض ، وتوكيدها: توثيقها والتشديد فيها ، كفيلا: أى شاهدا ورقيبا ، والغزل : ماغزل من صوف ونحوه، والقوة : الإبرام والإحكام ، والأنكاث، واحدها نكث ، وهومايُنكث فتله و ينقض بعدغزله ، والدخل: المكر والخديعة . وقال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحا فهو دخل ، و يراد به أن يظهر الوفاء بالعهد و يبطن النقض ، أربى : أى أكثر وأوفر عددا .

المعنى الجملى

بعد أن بالغ سبحانه فى الوعد للمتقين والوعيد للكافرين ، وعاد وكرر فى الترغيب والترهيب إلى أقصى الغاية ، أردف ذلك بذكر هذه الأوامر التى جمعت فضائل الأخلاق والآداب وضروب التكاليف التى رسمها الدين وحث عليها لما فيها من إصلاح حال النفوس ، وصلاح حال الأمم والشعوب ، ثم ضرب الأمثال لمن يحيد عنها وينفر من فعلها .

ثم أبان أن أمر الهداية والإضلال بيد الله ، والله قد قدّره على حسب استعداد النفوس للصلاح والغواية ، وسيجازى يوم القيامة كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب .

أخرج البخارى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم والبيهقى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « أعظم آية فى كتاب الله تعالى : اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » وأجمع آية فى كتاب الله للخير والشر الآية التى فى النحل « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ» وأكثر آية فى كتاب الله تفويضا «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » وأشد آية فى كتاب الله رجاء « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً » وعن عكرمة أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد ابن المغيرة هذه الآية فقال له يابن أخى أعد علىّ فأعادها عليه ، فقال له الوليد : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقوله البشر .

وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن الحسن رضى الله عنه أنه قرأ هذه الآية « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » الآية ثم قال إن الله عزّ وجل جمع لكم الخير كله والشر كله فى آية واحدة ، فوالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئا إلا جمعه وأمر به ، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغى من معصية الله شيئا إلا جمعه وزجر عنه .

قال الحافظ أبو يعلى فى كتاب معرفة الصحابة عن على بن عبد الملك بن عُمير عن أبيه قال : بلغ أكثم بن صيفى مخرج النبى صلى الله عليه وسلم فأراد أن يأتيه فأبى قومه أن يَدَعوه وقالوا : أنت كبيرنا لم تكن لتخفّ إليه ، قال فليأته من يبلغه عنى و يبلغنى عنه ، فانتدب رجلان فأتيا النبى صلى الله عليه وسلم فقالا : نحن رسل أكثم بن صيفى وهو يسألك من أنت وما أنت ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أما من أنا ؟ فأنا محمد بن عبد الله ، وأما ما أنا ؟ فأنا عبد الله ورسوله ، قال ثم تلا عليهم : إن الله يأمر بالعدل والإحسان الآية .

قالوا ردّد علينا القول فردده عليهم حتى حفظوه ، فأتيا أكثم فقالا أبى أن يرفع نسبه ، فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكى النسب وسطا فى مضر ، وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها ، فلما سمعهن أكثم قال : إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق و ينهى عن ملائمها ، فكونوا فى هذا الأمر رءوسا ولا تكونوا فيه أذنابا ، وكونوا فيه أوّلا ، ولا تكونوا فيه آخرا .

وقال سعيد بن جبير عن قتادة فى قوله (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية ليس من خلُق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به و يستحسونه إلا أمر الله به ، وليس من خلق سيىء كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه ، و إنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها .

الإيضاح

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان) أى إن الله يأمر فى هذا الكتاب الذى أنزله إليك أيها الرسول بالعدل والإنصاف ، ولا نصفة أجمل من الاعتراف بمن أنعم علينا بنعمه ، والشكر له على إفضاله ، وحمده وهو أهل للحمد، ومنع ذلك عمن ليس له بأهل ، فالأوثان والأصنام لا تستحق شيئا منه ، فمن الجهل عبادتها وحمدها

وهى لا تنعم فتشكر ، ولا تنفع فتعبد ، ومن ثم وجب أن نشهد أن لا إله إلا الله وحده .

أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى أنه قال : دعانى عمر بن العزيز فقال : صف لى العدل ، فقلت بَخٍ سألت عن أمر جسيم ، كن لصغير الناس أباً ولكبيرهم ابناً ، والمثل منهم أخا ، وللنساء كذلك ، وعاقب الناس على قدر ذنوبهم وعلى قدر أجسامهم ، ولا تضربنّ لغضبك سوطا واحدا فتكون من العادين .

وأخرج البخارى فى تاريخه أن على بن أبى طالب مرّ بقوم يتحدثون ، فقال فيم أنتم ؟ فقالوا نتذاكر المروءة فقال : أو ما كفاكم الله عز وجل ذاك فى كتابه إذ يقول : إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، فالعدل الإنصاف ، والإحسان : التفضل ، فما بقى بعد هذا ؟ .

وأعلى مراتب الإحسان الإحسان إلى المسيء ، وقد أمر به النبى صلى الله عليه وسلم، وروى عن الشعبى أنه قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ،ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك. وقد صح من حديث ابن عمر فى الصحيحين أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

(وإيتاء ذى القربى) أى وإعطائهم ما تدعو إليه الحاجة ، وفى الآية إرشاد إلى صلة الأقارب والأرحام وترغيب فى التصدق عليهم ، وهذا وإن دخل فيما سلف من الإحسان — فقد خصص للاهتمام به والعناية بشأنه .

وبعد أن ذكر الثلاثة التى أمر بها أتبعها بالثلاثة التى نهى عنها فقال :

(وينهى عن الفحشاء) وهى الغلو فى الميل إلى القوة الشهوانية كالزنا وشرب الخمر والسرقة والطمع فى مال الناس .

(والمنكر) وهو ما تنكره العقول من المساوى الناشئة من الغضب كالضرب والقتل والتطاول على الناس .

(والبغى) وهو ظلم الناس والتعدى على حقوقهم .

وخلاصة ماسلف — إن الله يأمر بالعدل ، وهو أداء القدر الواجب من الخير ، وبالإحسان، وهو الزيادة فى الطاعة والتعظيم لأمر الله والشفقة على خلقه ، ومن أشرف ذلك صلة الرحم .

وينهى عن التغالى فى تحصيل اللذات الشهوانية التى يأباها الشرع والعقل ، وعن الإفراط فى اتباع دواعى الغضب بإيصال الشر إلى الناس وإيذائهم وتوجيه البلاء إليهم ، وعن التكبر على الناس والترفع عليهم وتصعير الخدّ لهم .

(يعظكم لعلكم تذكرون) أى أمركم بثلاث ونهاكم عن ثلاث ، كى تتعظوا فتعملوا بما فيه رضاه سبحانه وتعالى ، وما فيه صلاحكم فى دنياكم وآخرتكم .

وبعد أن ذكر المأمورات والمنهيات بطريق الإجمال فى الآية الأولى — ذكر بعضها على سبيل التخصيص فقال :

(وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) أى وأوفوا بميثاق الله إذا واثقتموه ، وعقده إذا عاقدتموه ، فأوجبتم به على أنفسكم حقا لمن عاقدتموه وواثقتموه عليه ، ويدخل فى ذلك كل عهد يلتزمه الإنسان باختياره ، والوعد من العهد ، ومن ثم قال ميمون ابن مِهران : من عاهدته وفِّ بعهده ، مسلما كان أو كافرا ، فإنما العهد لله تعالى .

(ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) أى لا تخالفوا ما عاقدتم فيه الأيمان وشددتم فيه على أنفسكم ، فتحنثوا فيه وتكذبوا وتنقضوه بعد إبرامه ، وقد جعلتم الله بالوفاء بما تعاقدتم عليه راعيا يرعى الموفى منكم بالعهد والناقض له بالجزاء عليه .

ثم وعد وأوعد فقال :

(إن الله يعلم ماتفعلون) فى العهود التى تعاهدون الله الوفاء بها ، والأيمان التى تؤكدونها على أنفسكم ، أتبرّون فيها أم تنقضونها ؟ وهو محصٍ ذلك كله عليكم وسائلكم عنه وعما عملتم فيه ، فاحذروا الله أن تلقوه وقد خالفتم أمره ونهيه ، فتستوجبوا منه ما لا قبل لكم به من أليم عقابه .

أخرج ابن جرير عن مَزْيَدَة بن جابر أن الآية نزلت فى بيعة النبى صلى الله عليه وسلم كان من أسلم يبايع على الإسلام ، فقال تعالى : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) فلا تحملنكم قلة محمد وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التى بايعتم على الإسلام ، وإن كان فى المسلمين قلة وفى المشركين كثرة .

ثم أكد وجوب الوفاء وتحريم النقض مع ضرب المثل فقال :

(ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) أى ولا تكونوا أيها القوم فى نقضكم أيمانكم بعد توكيدها ، وإعطائكم ربكم العهود والمواثيق كمن تنقض غزلها بعد إبرامه وإحكامه ، وتنفشه بعد أن جعلته طاقات ، حماقة منها وجهلا .

قال السُّدِّى : هذه امرأة خرقاء كانت بمكة ، كلما غزلت غزلا نقضته بعد إبرامه .

والخلاصة — إنه تعالى شبه حال الناقض للعهد بحال من تنقض غزلها بعد فتله وإبرامه ، تحذيرا للمخاطبين وتنبيها إلى أن هذا ليس من فعل العقلاء ، وصاحبه فى زمرة الحمق من النساء .

(تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة) أى تجعلون أيمانكم التى تحلفون بها على أنكم موفون بالعهد لمن عاقدتم ـ خديعة وغرورا ليطمئنوا إليكم، وأنتم مضمرون لهم الغدر وترك الوفاء بالعهد ، والنقلة إلى غيرهم من أجل أنهم أكثر منهم عَدَدًا وَعُدَدًا وأعز نفرا ، بل عليكم بالوفاء بالعهود والمحافظة عليها فى كل حال.

قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز نفرا فينقضون حِلْف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز نفرا فنهوا عن ذلك ، وقيل هو تحذير للمؤمنين أن يغتروا بكثرة قريش وسعة أموالهم فينقضوا بيعة النبى صلى الله عليه وسلم .

(إنما يبلوكم الله به) أى إنما يعاملكم الله معاملة المختبر بأمره إياكم بالوفاء بعهده

إذا عاهدتم ، لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله تعالى و بيعة رسوله ، أم تغترون بكثرة قريش وشوكتهم ، وقلة المؤمنين وضعفهم على حسب ظاهر الحال .

ثم أنذر وحذر من خالف الحق وركن إلى الباطل فقال :

(وليبيننّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) أى وليبينن لكم ربكم يوم القيامة إذا وردتم عليه لمجازاة كل فريق منكم على عمله فى الدنيا ، المحسن منكم باحسانه ، والمسيء بإساءته — ما كنتم تختلفون فيه فى الدنيا من إقرار المؤمن بوحدانية ربه ، ونبوة نبيه ، والوحى إلى أنبيائه ، والكافر بكذبه بذلك كله .

و بعد أن أبان أنه كلفهم الوفاء بالعهد ، وتحريم نقضه أتبعه ببيان أنه قادر على جمعهم على هذا الوفاء وعلى سائر أبواب الإيمان فقال :

(ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء) أى ولو شاء الله لجعل الناس على دين واحد بمقتضى الغريزة والفطرة ولم يجعل لهم اختيارا فيما يفعلون ، فكانوا فى حياتهم الاجتماعية أشبه بالنمل والنحل ، وفى حياتهم الروحية أشبه بالملائكة ، مفطورين على طاعة الله واعتقاد الحق ، وعدم الميل إلى الزيغ والجور ، لكنه تعالى خلقهم كاسبين لا ملهمين ، وعاملين بالخيار لا مفطورين وجعلهم متفاوتين فى الاستعداد وكسب العلم ، فللانسان اختيار أوتيه على حسب استعداده الأزلى وهو مجبور فيه ، والثواب والعقاب يترتبان على هذا الاختيار الذى يشاهد ، وتكون عاقبته الجنة أو النار .

(ولتسألن عما كنتم تعملون) أى ولتسألن يوم القيامة جميعا سؤال محاسبة ومجازاة ، لا سؤال استفهام واستفسار ، وقد تكرر ذكر هذا المعنى فى سور كثيرة .

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤)

وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ، إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)

شرح المفردات

زلة القدم بعد ثبوتها : مثل يقال لمن وقع فى محنة بعد نعمة ، و بلاء بعد عافية ، والحياة الطيبة : هى القناعة وعدم الحرص على لذات الدنيا ، لما فى ذلك من الكدّ والعناء .

المعنى الجملى

بعد أن حذر سبحانه من نقض العهود والأيمان على الإطلاق — حذر فى هذه الآية من نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها وهى نقض عهد رسول الله على الإيمان به ، واتباع شرائعه جريا وراء خيرات الدنيا وزخارفها ، وأبان لهم أن كل ذلك زائل وما عند الله باق لاينفد ، ثم هو بعدُ يجزيهم الجزاء الأوفى .

الإيضاح

(ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم) أى ولا تجعلوا أيمانكم خديعة تغرون بها الناس ، والمراد بذلك نهى المخاطبين بذلك الخطاب عن نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها .

ذلك أنهم بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام وحلفوا على ذلك أوكد الأيمان ثم نقضوا ما فعلوا لقلة أهله وكثرة أهل الشرك ، فنهوا عن ذلك .

(فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم) أى إنكم بعملكم هذا تكونون قد وقعتم فى محظورات ثلاثة .

(١) إنكم تضلون وتبعدون عن محجة الحق والهدى بعد أن رسخت أقدامكم فيها .

(٢) إنكم تكونون قدوة لسواكم وتستنون سنة لغيركم ، فيها صد عن سبيل الحق ، ويكون لكم بها سوء العذاب فى الدنيا بالقتل والأسر وسلب الأموال والجلاء عن الديار .

(٣) إنكم ستعاقبون فى الآخرة أشد العقاب جزاء ما اجترحتم من مجانفة الحق والإعراض عن أهله ، والدخول فى زمرة أهل الشقاء والضلال .

ثم أكد هذا التحذير بقوله :

(ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا) أى ولا تأخذوا فى مقابلة نقض العهد عوضا يسيرا من الدنيا ، وقد كان هذا حال قوم ممن أسلموا بمكة ، زين لهم الشيطان أن ينقضوا ما بايعوا رسول الله عليه ، جزعا مما رأوا من غلبة قريش ، واستضعافهم للمؤمنين ، وإيذائهم لهم ، ولما كانوا يعدونهم به من البذل والعطاء إن هم رجعوا إلى دينهم ، فنبههم الله بهذه الآية ونهاهم عن أن يستبدلوا الخير العميم والنعيم المقيم فى الآخرة بما وعدوهم به من عرض الدنيا وزينتها .

ثم بين سبحانه قلة ما أخذوا ، وعظيم ما تركوا بقوله :

(إن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون) أى إن ما خبأه الله لكم ، وادخره من جزيل الأجر والثواب هو خير لكم من ذلك العرض القليل فى الدنيا ، إن كنتم من ذوى العقول الراجحة ، والأفكار الثاقبة التى تزن الأمور بميزان الفائدة وتقدر الفرق بين العوضين .

ثم بين وجه خيريته ورجاحة شأنه بقوله :

(ما عندكم ينفد وما عند الله باق) أى إن ما تتمتعون به من نعيم الدنيا بل

الدنيا وما فيها تنفد وتنقضى وإن طال الأمد وجل المدد ، وما فى خزائن الله باق لا نفاد له ، فلما عنده فاعملوا ، وعلى الباقى الذى لا يفنى فاحرصوا .

ثم رغب سبحانه المؤمنين فى الصبر على ما التزموه من شرائع الإسلام فقال :

(ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) أى ولنثيبن الذين صبروا على أذية المشركين وعلى مشاق الإسلام التى تتضمن الوفاء بالعهود والمواثيق، الثواب العظيم الذى هم له أهل كفاء صبرهم وهو أحسن أعمالهم ، إذ كل التكاليف محتاجة إليه وهو أس الأعمال الصالحة .

وفى الآية عدة جميلة باغتفار ما عسى أن يكون قد فرط منهم أثناء ذلك من جزع يعتريهم على حسب الطبيعة البشرية .

ثم رغبهم فى المثابرة على أداء الطاعات وعمل الواجبات الدينية فقال :

(من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) أى ومن عمل صالح الأعمال وأدى فرائض الله التى أوجبها عليه وهو مصدق بثوابه الذى وعد به أهل طاعته ، وبعقاب أهل المعصية على عصيانهم ، فلنحيينه حياة طيبة ، تصحبها القناعة بما قسم الله ، والرضا بما قدره وقضاه ، إذ هو يعلم أن رزقه إنما حصل بتدبيره ، والله محسن كريم لا يفعل إلا ما فيه المصلحة ، ويعلم أن خيرات الدنيا سريعة الزوال ، فلا يقيم لها فى نفسه وزنا ، فلا يعظم فرحه بوجدانها ، ولا غمه بفقدانها .

ثم هو بعد ذلك يجزى فى الآخرة أحسن الجزاء ، ويثاب أجمل الثواب ، جزاء ما قدم من عمل صالح ، وتحلى به من إيمان صادق .

أما من أعرض عن ذكر الله فلم يؤمن ولم يعمل صالحا فهو فى عناء ونكد ، إذ يكون شديد الحرص والطمع فى الحصول على لذات الدنيا ، فإن أصابته محنة أو بلاء استعظم أمره ، وعظمت أحزانه ، وكثر غمه وكدره ، وإذا فاته شىء من خيراتها عبس وبسر ، وامتلأ قلبه أسى وحسرة ، لأنه يظن أن السعادة كل السعادة

فى الحصول على زخرف هذه الحياة والتمتع بمتاعها . فإذا هو لم ينل منه ما يريد فقد حرم كل ما يحلم به ، ويقدره من وافر السعادة وعظيم الخير ، والإنسان بطبعه جزوع هلوع منوع (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول « اللهم قنعنى بما رزقتنى وبارك لى فيه ، واخلف علىّ كل غائبة لى بخير » ، وأخرج الترمذى والنسائى من حديث فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قد أفلح من هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به » .

وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافا ، وقنّعه الله بما آتاه » .

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)

شرح المفردات

قرأت القرآن : أى أردت قراءته كما تقول إذا أكلت فقل باسم الله ، وإذا سافرت فتأهب ، والرجيم: المرجوم المبعد من رحمة الله ، والسلطان: التسلط والاستيلاء ، والتولى : الطاعة يقال توليته أى أطعته ، وتوليت عنه أى أعرضت .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه يجزى المؤمنين بأحسن أعمالهم ، أرشد إلى العمل الذى به تخلص أعمالهم من وساوس الشيطان .

الإيضاح

(فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) أى إذا شرعت فى قراءة القرآن فاسأل الله سبحانه أن يعيذك من وساوس الشيطان الرجيم، لئلا يلبس عليك قراءتك، ويمنعك من التدبر والتفكر كما قال «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ» وإذا أمر النبى صلى الله عليه وسلم مع عصمته منه فما بالك بسائر أمته ثم بين أن الناس فريقان فريق لاتسلط له عليهم وهم الذين وصفهم الله بقوله:

(إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) أى إنه لا تسلط للشيطان على الذين يصدقون بلقاء الله ويفوضون أمورهم إليه، وبه يعوذون وإليه يلتجئون، فلا يقبلون ما يوسوس به ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته.

وعن سفيان الثورى أنه قال: ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لايغفر لهم – يريد أنهم أمروا بالاستعاذة منه ليحفظهم الله من وساوسه التى ربما جرتهم إلى الوقوع فى صغائر الآثام متى تقع على سبيل الندرة أو الغفلة.

والفريق الثانى الذين عناهم بقوله:

(إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) أى إنما تسلطه بالغواية والضلالة على الذين يجعلونه نصيرا لهم فيحبونه ويطيعونه ويستجيبون دعوته، والذين هم بسبب إغوائه يشركون بربهم.

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ

أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)

شرح المفردات

التبديل : رفع شيء ووضع غيره مكانه ، وتبديل الآية : نسخها بآية أخرى ، وروح القدس : جبريل عليه السلام ؛ سمى بذلك لأنه ينزل بالقدس أى بما يطهر النفوس : من القرآن والحكمة والفيض الإلهى ، بالحق : أى بالحكمة المقتضية له ، بشر : هو جبر الرومى غلام ابن الحضرمى كان قد قرأ التوراة والإنجيل وكان النبى صلى الله عليه وسلم يجلس إليه إذا آذاه أهل مكة ، والإلحاد : الميل يقال لحد وألحد إذا مال عن القصد ، ومنه سمى العادل عن الحق ملحدا ، لسان : أى كلام ؛ و يقال رجل أعجم وامرأة عجماء إذا كانا لا يفصحان عن مرادهما ، والأعجمى والأعجم : الذى فى لسانه عجمة ، من العجم كان أو من العرب ، ومن ذلك زياد الأعجم كان عربيا فى لسانه لكنة .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بالاستعاذة من وسوسة الشيطان الرجيم حين قراءة القرآن ، أردف ذلك بذكر باب من أبواب فتنته ووسوسته بإلقاء الشبهات والشكوك لدى منكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر منها شبهتين :

(١) إنه قد تنزل آية من آيات الكتاب تنسخ شريعة ماضية فيعيرون محمدا بذلك .

(٢) إنهم قالوا إن ما جاء به إنما هو تعليم من البشر من بعض أهل الكتاب لا من الله ، فأبطل هذه الشبهة بأنه كلام عربى مبين وما نسبتم إليه تعليمه أعجمى ، فكيف به يعلمه الكلام العربى الفصيح الذى أعجز العرب قاطبة أن يأتوا بمثله .

الإيضاح

(وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون) أى وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكم آية أخرى ، والله أعلم بالذى هو أصلح لخلقه فيما يبدل من أحكامه - قال المشركون المكذبون لرسوله : إنما أنت متقوّل على الله تأمر بشىء ثم تنهى عنه ، وأكثرهم لا يعلمون ما فى التبديل من حكم بالغة ، وقليل منهم يعلمون ذلك وينكرون الفائدة عنادا واستكبارا .

وفى قوله (والله أعلم بما ينزل) توبيخ لهم وإيماء إلى أن التبديل لم يكن للهوى بل كان لحكمة اقتضته ودعت إليه من تغير الأحوال والأزمان ، ألا ترى أن الطبيب يأمر المريض بدواء بعينه ، ثم إذا عاده مرة أخرى نهاه عن ذلك الدواء وأمره بضده أو بما لا يقرب منه على حسب ما يرى من حال المريض .

وهكذا الشرائع إنما توضع مشاكلة للزمان والمكان والأحوال الملابسة لها ، وقد يطرأ ما يغيرها ويستدعى وضع تشريع آخر يكون أصلح للأحوال المفاجئة ، والمشاهدة تدل على صدق هذا ، فإنا نرى القوانين الوضعية تغير آنا بعد آن إذا جد ما يستدعى ذلك ، وقد تقدم بسط هذا فى سورة البقرة .

ثم بين لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ الزاعمين أن ذلك لم يكن من عند الله وأن رسوله صلى الله عليه وسلم قد افتراه فقال :

(قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) أى قل لهم : قد جاء جبريل من عند ربى بما أتلوه عليكم واقتضته الحكمة البالغة من تثبيت المؤمنين وتقوية إيمانهم بما فيه من أدلة قاطعة وبراهين ساطعة على

وحدانية خالق الكون وباهر قدرته وواسع علمه ، وحث على النظر فى ملكوت السموات والأرض ، وتشريع يرقى بالأمم فى أخلاقها وآدابها ومعارفها إلى مستوى لاتدانيها فيه أمة أخرى .

والخلاصة — إنه نافع كل النفع لهم فى دينهم ودنياهم ، فإذا هم رأوا ذلك رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم ، كما أنّ فيه هداية لهم من الزيغ والضلالات ، ففيه ما يهذب النفوس ويكبح جماح الطغيان ويرد المظلوم عن ظلمه ويدفع عدوان الناس بعضهم على بعض ، وفيه بشرى للمسلمين بما سيلقونه من الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار جزاء أعمالهم وكدهم ونصبهم إرضاء لربهم .

وفى هذا إيماء إلى أن هؤلاء المشركين لهم من الصفات ضد هذا فهم متزلزلون ضالون لهم خزى ونكال فى الدنيا والآخرة .

ثم حكى عنهم شبهة ثانية فقال :

(ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر) أى وإنا لنعلم أن هؤلاء المشركين يقولون جهلا : إنما يعلم محمدا هذا الذى يتلوه بشر من بنى آدم وليس بالوحى من عند الله .

فرد الله عليهم وكذبهم فى قيلهم فقال :

(لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) أى إن لسان الذى تميلون إليه بأنه يعلم محمدا ـ أعجمى فهو عبد رومى فيما تزعمون ، والقرآن لسان عربى مبين ، فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن فى فصاحته وبلاغته ومعانيه الشاملة من رجل أعجمى ؟ لايقول هذا من له أدنى مُسْكة من عقل .

وخلاصة هذا — إن ما يسمعه من ذلك البشر كلام أعجمى لايفهمه هو ولا أنتم والقرآن كلام عربى تفهمونه بأدنى تأمل فكيف يكون هو ما تلقفه منه ؟ هبه تعلم منه المعنى باستماع كلامه ، فهو لم يلقَف منه اللفظ ، لأن ذلك أعجمى وهذا عربى ، والقرآن كما هو معجز باعتبار المعنى هو معجز من حيث اللفظ ـ إلى أن العلوم الكثيرة

التى فى القرآن لايمكن تعلمها إلا بالدرس والتلقين من أخصائيين مع الاختلاف إليهم مددا متطاولة ، فليس من الميسور ولا مما يجد العقل اطمئنانا إليه أن يتعلم مثل هذا من غلام سُوقى سمع منه أخبارا بلغة أعجمية لعله لم يكن يعرف معناها .

وعلى نحو آخر كأنه قيل لهم : أنتم أفصح الناس بيانا ، وأقواهم حجة و برهانا ، وأقدرهم على الكلام نظما ونثرا ، وقد عجزتم وعجز جميع العرب أن يأتوا بمثله ، فكيف تنسبونه إلى أعجمىّ ألكن .

وفى التشبث بأمثال هذه المطاعن الركيكة والخرافات الساذجة أبلغ دليل على أنهم بلغوا غاية العجز ، ونهاية السخف .

فدعهم يزعمون الصبح ليلا أيعمى الناظرون عن الضياء

ثم توعدهم على ما قالوا بالعقاب فى الدنيا والآخرة فقال :

(إن الذين لايؤمنون بآيات الله لايهديهم الله ولهم عذاب أليم) أى إن الذين لايصدقون بأن هذه الآيات من عند الله ، بل يقولون فيها ما يقولون ، فيقولون تارة إنها مفتريات ، ويقولون أخرى إنها من أساطير الأولين - لايهديهم الله إلى معرفة الحق الذى ينجيهم من عذاب النار ، لما يعلم من سوء استعدادهم بما اجترحوا من السيئات ودنسوا به أنفسهم من ارتكاب الموبقات ، ولهم فى الآخرة إذا وردوا إلى ربهم عذاب مؤلم موجع كفاء ما نصبوا له أنفسهم من العداء لرسوله والتكذيب لآيات الكتاب .

ثم لما نسبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الافتراء رد الله عليهم بقوله :

(إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله) أى إنما يتخرص الكذب ويتقول الباطل الذين لايصدقون بحجج الله وآياته التى نصبها فى الكون وأقامها أدلة على وجوده ووحدانيته ، لأنهم لايرجون على الصدق ثوابا ، ولا يخشون على الكذب عقابا ، وهذه صفاتكم أيها المشركون لاصفات النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ومن ثم حكم عليهم بالكذب حكما صريحا فقال :

(وأولئك هم الكاذبون) أى وأولئك الذين كفروا من رجال قريش القائلين لك أيها الرسول : إنما أنت مفتر هم الكاذبون لا أنت .

وهذا تصريح بنسبة الكذب إليهم بعد التعريض ، ليكون ميسم خزى وعار لهم .

مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ، وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩)

شرح المفردات

أكره : أى على التلفظ بكلمة الكفر ، والاطمئنان : سكون النفس بعد انزعاجها ؛ والمراد الثبات على ما كان عليه بعد إزعاج الإكراه ، شرح بالكفر صدرا : أى اعتقده وطاب به نفسا ، استحبوا الحياة الدنيا : أى آثروها وقدموها ، لاجرم : أى حقا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآيات السالفة أن قريشا كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وتقوّلوا عليه الأقاويل فوصفوه بأنه مفتر وأن الكتاب الذى جاء به هو من كلام البشر لا من عند الله ، ثم هددهم على ذلك أعظم تهديد ـ قفى على ذلك ببيان حال من يكفر بلسانه وقلبه ملىء بالإيمان .

أخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل « أن المشركين أخذوا عمّار ابن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبى صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخير ، فلما أتى رسول الله قال له ماوراءك ؟ قال شر ما تركت ، نلتُ منك وذكرت آلهتهم بخير ، قال كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئن بالإيمان ، قال إن عادوا فعد فنزلت : إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان» ، وروى «أن قريشا أكرهوا عمارا وأبويه ياسرا وسمية على الارتداد فأبوا ، فربطوا سمية بين بعيرين ووجئت بحربة فى موضع عفتها وقالوا إنما أسلمت من أجل الرجال فقتلوها وقتلوا ياسرا وهما أول قتيلين فى الإسلام ، وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه ، فقيل يا رسول الله إن عمارا كفر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلا إن عمارا ملئ إيمانا من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال : مالك ؟ إن عادوا فعد لهم بما قلت » .

الإيضاح

(من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) أى إن من كفر بالله بعد الإيمان والتبصر فعليه غضب من الله إلا إذا أكره على ذلك وقلبه ملىء بالإيمان من الله والتصديق برسوله ، فلا تثريب عليه كما فعل عمار بن ياسر .

(ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) أى ولكن غضب الله وشديد عقابه لمن طابت أنفسهم بالكفر ، واعتقدوه طائعين مختارين ، لعظيم جرمهم وكبير إثمهم .

ثم بين سبب هذا الغضب فقال :

(ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة) أى ذلك الغضب من الله ، والعذاب العظيم من أجل أنهم آثروا الحياة الدنيا وزينتها على نعيم الآخرة .

(وأن الله لايهدى القوم الكافرين) أى وأن الله لايوفق من يجحد آياته

و يصرّ على إنكارها ، لأنه قد فقد الاستعداد لسبل الخير بما زينت له نفسه، وسولت له من عظيم الجرم ، واختار من عظيم الإثم ، فأصبح قلبه مليئاً بما يشغله عن دواعى الإيمان بما يمليه عليه الشيطان .

(أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون) أى أولئك الذين اتصفوا بما تقدم ذكره — هم الذين طبع الله على قلوبهم فلا يؤمنون ولا يهتدون ، وأصم أسماعهم فلا يسمعون داعى الله إلى الهدى ، وأعمى أبصارهم فلا يبصرون بها حجج الله إبصار معتبر ومتعظ ، وأولئك هم الساهون عما أعد لأمثالهم من أهل الكفر ، وقد تقدم ذكر (الطبع) فى آى كثيرة .

(لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون) أى حقا إنهم فى الآخرة هم الهالكون الذين غبنوا أنفسهم حظوظها ، وصرفوا أعمارهم فيما لا يفضى بهم إلا إلى العذاب المخلد ولله در من قال :

إذا كان رأس المال عمرك فاحترس عليه من الإنفاق فى غير واجب

فما المرء فى هذه الحياة إلا كالتاجر ، يشترى بطاعة ربه سعادة الآخرة ، فإذا لم يفعل من ذلك شيئا خسرت تجارته ، وعاد ذلك عليه بالوبال والنكال فى جهنم وبئس القرار .

وقد حكم الله على هؤلاء الكافرين بستة أشياء :

(١) إنهم استوجبوا غضب الله .
(٢) إنهم استحقوا عقابه العظيم .
(٣) إنهم استحبوا الحياة الدنيا .
(٤) إن الله حرمهم من الهداية للطريق القويم .
(٥) إنه طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم .
(٦) إنه جعلهم سبحانه من الغافلين .

قال مجاهد : أول من أظهر الاسلام سبعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وخباب وصهيب و بلال وعمار وسمية .

أما الرسول فحماه أبو طالب ، وأما أبو بكر فحماه قومه ، وأخذ الآخرون وألبسوا دروع الحديد ، ثم أجلسوا فى الشمس ، فبلغ منهم الجهد بحر الحديد والشمس ، وأتاهم أبو جهل يشتمهم ويوبخهم ويشتم سمية ثم طعنها بحربة فى ملمس العفة ، وقال الآخرون ما نالوا به منهم ، إلا بلالا فإنهم جعلوا يعذبونه فيقول : أحدٌ أحدٌ حتى ملوا ، فكتفوه وجعلوا فى عنقه حبلا من ليف ، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به ، حتى ملوه فتركوه .

وقال عمار : كلنا تكلم بالذى أرادوا غير بلال فإن نفسه هانت عليه فتركوه ، وقال خباب : لقد أوقدوا لى نارا ما أطفأها إلا ودك (دهن) ظهرى .

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)

شرح المفردات

أصل الفتن : إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، ثم استعمل فى المحنة والابتلاء يصيب الانسان ، تجادل: أى تدفع وتسعى فى خلاصها ، والنفس الأولى الجثة والبدن ، والنفس الثانية عينها وذاتها ، وتوفى : تعطى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف حال من كفر بالله من بعد إيمانه وحكم بأنه استحق غضب الله وعذابه الأليم يوم القيامة ، ثم ذكر حال من أكره على إجراء كلمة الكفر على لسانه وقلبه ملىء بالايمان — أردف ذلك بذكر طائفة من المسلمين كانوا مستضعفين بمكة مهانين فى قومهم فوافقوا المشركين على الفتنة فى الدين والرجوع إلى دين آبائهم وأجدادهم ثم فروا وتركوا بلادهم وأهليهم ابتغاء رضوان الله وطلب

غفرانه ، وانتظموا فى سلك المسلمين وجاهدوا معهم الكافرين ، فحكم ربهم بقبول توبتهم ودخولهم فى زمرة الصالحين وتمتعهم بجنات النعيم يوم العرض والحساب .

أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة أن عياشا رضى الله عنه (وكان أخا أبى جهل من الرضاعة) وأبا جندل بن سهل وسلمة بن هشام وعبد الله بن سلمة الثقفى ، فتنهم المشركون وعذبوهم فأعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم ، ثم إنهم بعد ذلك هاجروا وجاهدوا فنزلت فيهم الآية .

الإيضاح

(ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) أى إن ربك أيها الرسول للذين هاجروا من ديارهم وتركوا مساكنهم وعشائرهم من أهل الشرك ، وانتقلوا عنهم إلى ديار الاسلام من بعد ما فتنهم المشركون الذين كانوا بين ظهرانيهم قبل هجرتهم ، ثم جاهدوا المشركين بعد ذلك بأيديهم بالسيف ، وبألسنتهم بالبراءة منهم ومما يعبدون من دون الله وصبروا على جهادهم — إن ربك من بعد أفعالهم هذه لذو ستر على ما كان منهم من إعطاء المشركين ما أرادوا منهم من كلمة الكفر بألسنتهم ، وهم لغيرها مضمرون ، وللايمان معتقدون ، رحيم بهم أن يعاقبهم عليها مع إنابتهم إليه ، وجميل صنعهم من بعد .

(يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها) أى إن ربك لغفور رحيم بهؤلاء يوم تأتى كل نفس تخاصم عن نفسها وتحاجّ عنها وتسعى فى خلاصها بما أسلفت فى الدنيا من عمل ، ولا يهمها شأن غيرها من ولد ووالد وقريب .

(وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون) وتعطى كل نفس جزاء ما عملت فى الدنيا من طاعة أو معصية ، فيجزى المحسن بما قدم من إحسان ، والمسىء بما أسلف من إساءة ، ولا يعاقب محسن ولا يثاب مسىء .

والخلاصة — إن كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره كما قال : « لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » .

وجاء فى بعض الآثار : « إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول : رب نفسى نفسى حتى إن إبراهيم الخليل ليفعل ذلك » .

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣)

المعنى الجملى

بعد أن هدد الله الكافرين بالعذاب الشديد فى الآخرة — أردف ذلك بالوعيد بآفات الدنيا من جوع وفقر وخوف شديد بعد أمن واطمئنان وعيش رغد .

الإيضاح

(وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون) أى بين الله صفة لقرية كان أهلها آمنين من العدوّ والقتال والجوع والسبى ، يأتيها الرزق الكثير من سائر البلدان فكفروا بنعم الله فعمهم الجوع والخوف ، وذاقوا مرارتهما بعد سعة العيش والطمأنينة وقد جاءهم رسول من جنسهم يعرفونه بأصله ونسبه ، فكذبوه فيما أخبرهم به من

وجوب الشكر على النعمة ، فأخذهم العذاب واستأصل شأفتهم لالتباسهم بالظلم وهو الكفر وتكذيب الرسول .

وفى هذا إيماء إلى تماديهم فى الكفر والعناد ، و إلى أن ترتيب العذاب على تكذيب الرسول جاء على سنة الله فى أنه لايعذب أمة إلا إذا أنذرها ، و بعث إليها رسولا يعظها و يرشدها كما يدل على ذلك قوله « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً » وهكذا حال أهل مكة ، فإنهم كانوا فى حرم آمن يتخطف الناس من حولهم ، ولا يمر بهم طيف من الخوف ولا يزعج قلوبهم مزعج ، وكانت تجبى إليهم ثمرات كل شىء ، وقد جاءهم رسول من أنفسهم فأنذرهم وحذرهم فكفروا بأنعم الله وكذبوا رسوله فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر وأذاقهم لباس الجوع والخوف بدعاء رسوله إذ قال : « اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » فاضطروا إلى أكل الجيف والكلاب الميتة والعظام المحرقة ، وكان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع ، وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا يغيرون على مواشيهم وعيرهم وقوافلهم ، ثم أخذهم يوم بدر ما أخذهم من العذاب ، وقد جعل الله الجوع والخوف اللذين خالط أذاهما أجسامهم ـ لباسا لهم ، لأن أثرهما وضررهما قد أحاط بهم من كل جانب فأشبها اللباس الذى يغطى الجسم ويحيط به ، وجعل إصابتهم بهما إذاقة دلالة على شدة تأثيرهما الشديد الذى حدث فيهم كما يكون ذلك حين ذوق شىء مر بشع كريه ، إذ يجد الذائق تقززا واشمئزازا .

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللهَ

غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩)

شرح المفردات

يقولون : له وجه يصف الجمال ، وعين تصف السحر ، يريدون أنه جميل وأن عينه تفتن من رآها ؛ لأنه لما كان وجهه منشأ للجمال وعينه منبعا للفتنة والسحر كان كل منهما كأنه إنسان عالم بكنههما محيط بحقيقتهما يصفهما للناس أجمل وصف ويعرفهما أتم تعريف ، وعلى هذا الأسلوب جاء قوله تعالى : ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب ، إذ جعل الكذب كأنه حقيقة مجهولة وكلامهم الكذب يشرح تلك الحقيقة ويوضحها ، كأن ألسنتهم لكونها موصوفة بالكذب هى حقيقته ومنبعه الذى يعرف منه ، وعليه قول أبى العلاء المعرى :

سرى برق المعرّة بعد وهْن   فبات برامة يصف الكلالا

أى إن سُرى ذلك البرق يصف الكلال والإعياء .

لتفتروا : أى لتكون العاقبة ذلك، والجهالة هنا: الطيش وعدم التدبر فى العواقب.

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه حال من كفروا بأنعم الله وكذبوا رسوله وأنه قد حل بهم العذاب من جوع وخوف بسبب ظلمهم لأنفسهم وصدهم عن سبيل الله — قفى على

ذلك بأمر المؤمنين بأكلهم من الحلال الطيب وشكرهم لنعمة الله عليهم وطاعتهم للرسول فيما به أمر وعنه نهى كيلا يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم ، ثم ببيان ما حرمه من المآكل ، وأن التحليل والتحريم لا يكونان إلا بنص من الدين لا بالهوى والتشهى ، لأن ذلك افتراء على الله ، ومن يفتر عليه لا يفلح ، وأن ما حرم على اليهود قد ذكره فيما نزل عليه من قبل فى سورة الأنعام ، وأن من يعمل السوء لعدم تدبره فى العواقب كغلبة الشهوة عليه ثم يتوب من بعد ذلك ويصلح أعماله ، فإن الله غفور لزلاته ، رحيم به فيثيبه على طاعته .

الإيضاح

(فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون) أى فكلوا يا معشر المؤمنين مما رزقكم الله من بهائم الأنعام التى أحلها لكم وذروا الخبائث وهى الميتة والدم ، واشكروا الله على ما أنعم به عليكم بتحليله ما أحل لكم ، وبسائر نعمه المتظاهرة عليكم ، إن كنتم تعبدونه فتطيعونه فيما يأمركم به وتنتهون عما ينهاكم عنه ، والمراد بذلك الحث على اتباع أوامره والمداومة عليها .

وبعد أن أمرهم بالأكل من الطيبات بين لهم ما حرم عليهم فقال :

(إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به) أى إنما حرم عليكم ربكم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح للأنصاب فسمى عليه بغير اسمه تعالى ، فإن ذلك من ذبائح من لا يحل أكل ذبيحته .

والخلاصة — إن ما سمى عليه غير الله عند الذبح سواء كان صنما أو وثنا أو روحا خبيثا من جن أو روحا طيبا من إنس كالنبى والولى حيا أو ميتا ، فأكله حرام لما جاء فى الحديث «ملعون من ذبح لغير الله» سواء سمى الله عند ذبحه أو لم يسم ، لأن هذا الحيوان قد انتسب إلى غيره تعالى ، فمن ذبح للسيد البدوى أو لإبراهيم الدسوقى أو للسيدة زينب لا يجوز أكل هذا الذبيح .

ثم ذكر الحال التى يسوغ فيها تناول شىء من هذه المحرمات فقال :

(فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم) أى فمن اضطر إلى تناول شىء من هذه المحرمات لمجاعة حلت به ، وضرورة دعته إلى أخذ شىء منها ، غير باغ على مضطر آخر ولا متعدّ قدر الضرورة وسد الرمق ـ فالله لايؤاخذه على ذلك وهو الذى يستر ما يصدر منهم من الهفوات ، وهو الرحيم بهم أن يعاقبهم على مثل ذلك ، أما ما حرموه غير ذلك من البحائر والسوائب والوصائل ونحوها مما تقدم فى سورة الأنعام فهو محض افتراء على الله ، وقد تقدم مثل هذه الآية فى سور البقرة والمائدة والأنعام وفيها حصر المحرمات فى هذه الأربع فحسب .

ثم أكد حصر المحرمات فى هـــذه الأربع ونهى عن التحريم والتحليل بالأهواء فقال :

(ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام) أى ولاتقولوا هذا حلال وهذا حرام بالرأى والهوى ، فلا تقولوا مافى بطون هــذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، ولا تحللوا الميتة والدم ولحم الخنزير الخ .

وخلاصة ذلك — لاتحللوا ولا تحرموا لمجرد وصف ألسنتكم الكذب وتصويرها له دون استناد إلى دليل ، وكأن ألسنتكم لأنها منشأ الكذب وينبوعه شخص عالم بحقيقته ومحيط بكنهه يصفه للناس ويوضحه لهم أتم إيضاح .

(لتفتروا على الله الكذب) أى لتكون عاقبة أمركم إسناد التحريم والتحليل إلى الله كذبا من غير أن يكون ذلك منه ، فالله لم يحرم من ذلك ما تحرمون ولا أحل كثيرا مما تحللون .

وإجمال ذلك — لاتسموا مالم يأتكم حله ولا حرمته عن الله ورسوله حلالا وحراما فتكونوا كاذبين على الله ، لأن مدار الحل والحرمة ليس إلا حكمه تعالى .

عن أبى نضرة قال : قرأت هذه الآية فى سورة النحل فلم أزل أخاف الفتيا إلى

يومى هذا ـ وقد صدق فكل من أفتى بخلاف مافى كتاب الله وسنة رسوله لجهله بما فيهما فقد ضل وأضل من يفتيهم ، ولله در القائل :

كبهيمة عمياء قاد زمامها   أعمى على عوج الطريق الحائر

أخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال : عسى رجل يقول إن الله أمر بكذا أو نهى عن كذا فيقول الله عز وجل كذبت ، أو يقول إن الله حرم كذا أو أحل كذا فيقول الله له كذبت .

ثم أوعد الله المفترين وهددهم أشد التهديد فقال :

(إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون) أى إن الذين يتخرصون الكذب على الله فى أمورهم صغيرها وكبيرها لايفوزون بخير فى المطالب التى لأجلها كذبوا على ربهم ، إذ هم متى عرفوا بالكذب مجهم الناس وانصرفوا عنهم وعاشوا أذلة بينهم ممقوتين ويكونون مضرب الأمثال فى الهوان والصغار ـ إلى ما يصيبهم من الخزى والوبال يوم القيامة .

ثم بين أن مايحصل لهم من المنافع بالافتراء على الله ليس شيئا مذكورا إذا قيس بالمضار التى تنجم منه فقال :

(متاع قليل ولهم عذاب أليم) أى إن المنافع التى قد تحصل لهم على ذلك فى الدنيا لايعتدّ بها فى نظر العقلاء إذا ووزن بينها وبين المضار التى فى الآخرة ، فما متاع الدنيا إلا ظل زائل ثم يفنى ويبقى لهم العذاب الأليم حين مصيرهم إلى ربهم بما اجترحوا من السيئات ، ودنّسوا به أنفسهم من أوضار الإثم والفجور والكذب على بارئهم الذى خلقهم وصوّرهم فأحسن صورهم . ونحو الآية قوله : « نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ » .

وبعد أن بين ما يحل وما يحرم لأهل الإسلام أتبعه ببيان ما خص به اليهود من المحرمات فقال :

(وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل) أى وحرمنا من قبلك

أيها الرسول على اليهود ما أنبأناك به من قبل فى سورة الأنعام : «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ» .

ثم بين السبب فى ذلك التحريم عليهم فقال :

(وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى وما ظلمناهم بتحريم ذلك عليهم ، ولكن ظلموا أنفسهم بمعصيتهم لربهم وتجاوزهم حدوده التى حدها لهم وانتهاك حرماته ، فعوقبوا بهذا التحريم كما قال فى آية أخرى : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ » الآية .

وفى هذا إيماء إلى أن ذلك التحريم إنما كان للظلم والبغى عقوبة وتشديدا ، وبه يعلم الفرق فى التحريم بينهم وبين غيرهم ، فإنه لهم عقوبة ، ولنا للمضرة فحسب .

ثم بيّن أن الافتراء على الله وانتهاك حرماته لا يمنع من التوبة التى يتقبلها الله منهم ويغفر لهم زلاتهم رحمة منه وفضلا فقال :

(ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) أى إن ربك للذين افتروا عليه وأشركوا به سواه وركبوا ما لا يليق من المعاصى بسبب الجهالة التى تحملهم على انتهاك حرمات الدين كالقتل للغيرة أو للعصبية كما جاء فى الخبر « اللهم إنى أعوذ بك من أن أجهل أو يجهل علىّ» . وقال عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

إنه لغفور رحيم بهم إذا هم تابوا وندموا على ما فرط منهم وأصلحوا أعمالهم ففعلوا ما يحب الله ورسوله .

وفى قوله : بجهالة ، إيماء إلى أن من يأتى الذنوب قلّما يفكر فى العاقبة لغلبة الشهوة عليه أو لجهالة الشباب والطيش .

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤) ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨).

شرح المفردات

الأمة: الجماعة الكثيرة، وسمى إبراهيم أمة لأنه قد جمع من الفضائل والكمالات ما لو تفرق لكفى أمة، ألا ترى أبا نواس إذ يقول لهرون الرشيد مادحا:

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

والقانت: المطيع لله القائم بأمره، والحنيف: المائل عن الدين الباطل إلى الدين الحق، واجتباه: اختاره واصطفاه، والحسنة: هى محبة أهل الأديان جميعا له إجابة لدعوته لربه «وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ» وجعل السبت لليهود: فرض تعظيمه والتخلى فيه للعبادة وترك الصيد، والحكمة: المقالة المحكمة المصحوبة بالدليل

الموضح للحق المزيل للشبهة ، والموعظة الحسنة : الدلائل الظنية المقنعة للعامة ، والجدل : الحوار والمناظرة لإقناع المعاند ، والعقاب فى أصل اللغة : المجازاة على أذى سابق ثم استعمل فى مطلق العقاب ، والضيق (بفتح الضاد وكسرها) الغم وانقباض الصدر.

المعنى الجملى

بعد أن زيف سبحانه مذاهب المشركين فى إثبات الشركاء والأنداد لله ، وفى طعنهم فى نبوة الأنبياء والرسل بنحو قولهم: لو أرسل الله رسلا لأرسل ملائكة. وفى تحليلهم أشياء حرمها الله ، وتحريم أشياء أحلها الله ، وبالغ فى رد هذه المعتقدات . ختم السورة بذكر إبراهيم رئيس الموحدين الذى كان المشركون يفتخرون به ، ويقرون بوجوب الاقتداء به ، ليصير ذكر طريقته حاملا لهم على الإقرار بالتوحيد والرجوع عن الشرك ، ثم بأمر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم باتباعه ، ثم بجعل الأسس التى يبنى عليها دعوته هى الحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالحسنى ، ثم بأمره باللين فى العقاب إن أراده أو بترك العقاب ، وهو أفضل للصابرين ، ثم بأمره بجعل الصبر رائده فى جميع أعماله ، ونهيه عن الحزن على كفر قومه وأنهم لم يجيبوا دعوته ، وأنهم يمكرون به ، فالله ينصره عليهم ويكفيه أذاهم ، فقد جرت سنته بأن العاقبة للمتقين ، والخذلان للعاصين الخائنين .

الإيضاح

(إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين. شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) مدح الله عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ، ووالد الأنبياء بجملة صفات من صفات الكمال :

(١) إنه وحده كان أمة ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : إنه كان عنده عليه

السلام من الخير ما كان عند أمة ، فهو رئيس الموحدين ، كسر الأصنام ، وجادل الكفار ، ونظر فى النجوم ، ودرس الطبيعة الكونية ليطمئن قلبه بالإسلام .

(٢) إنه كان قانتا أى مطيعا لله قائما بأمره .

(٣) إنه كان حنيفا أى مائلا عن الباطل ، متبعا للحق لا يفارقه ولا يحيد عنه .

(٤) إنه ما كان من المشركين فى أمر من أمور دينهم ، بل كان من الموحدين فى الصغر والكبر ، فهو الذى قال للملك فى عصره « رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ » وهو الذى أبطل عبادة الأصنام والكواكب بقوله : « لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ » وكسر الأصنام حتى ألقوه لأجلها فى النار فكانت عليه بردا وسلاما .

وعلى الجملة فقد كان غارقا فى بحار التوحيد مستغرقا فى حب الإله المعبود ، وفى ذلك رد على كفار قريش إذ قالوا نحن على ملة إبراهيم ، وعلى اليهود الذين أشركوا وقالوا عزير ابن الله، مع زعمهم أن إبراهيم كان على مثل ما هم عليه؛ ونحو الآية قوله : « مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

(٥) إنه كان شاكرا لأنعم الله عليه كما قال : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى » أى قام بجميع ما أمره الله تعالى به ، وفى هذا تعريض بكفار قريش الذين جحدوا بأنعم الله فأصابهم الجوع والخوف كما تقدم ذكره فى المثل السابق .

(٦) إنه اجتباه ربه واختاره للنبوة كما قال : « وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ » .

(٧) إنه هداه إلى صراط مستقيم ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له مع إرشاد الخلق إلى ذلك والدعوة إليه .

(٨) إن الله حببه إلى جميع الخلق ، فجميع أهل الأديان مسلميهم ونصاراهم ويهودهم يعترفون به ، وكفار قريش لا فخر لهم إلا به ، وقد أجاب الله دعاءه فى قوله « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ » .

(٩) إنه فى الآخرة فى زمرة الصالحين وهو معهم فى الدرجات العلى من الجنة ، إجابة لدعوته قال « رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » .

و بعد أن وصف إبراهيم بهذه الصفات الشريفة التى بلغت الغاية فى علوّ المرتبة . أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم باتباعه فقال :

(ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) أى ثم أوحينا إليك أيها الرسول وقلنا لك : اتبع ملة إبراهيم الحنيفية المسلمة البريئة من عبادة الأوثان والأنداد التى يعبدها قومك ، كما تبرأ إبراهيم من مثلها من قبل ، فأنت متبع له وسائر على قدمه ، وقومك ليسوا كذلك ، لأنهم يحلون ويحرمون من عند أنفسهم .

ونحو الآية قوله فى سورة الأنعام : « قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

وخلاصة ذلك — إنه عليه السلام أمر باتباع ملة إبراهيم بنفى الشرك و إثبات التوحيد ، و إن كان قد ثبت ذلك بالدليل العقلى ، ليظاهر الدليل النقلى الدليل العقلى .

وقوله (وما كان من المشركين) تكرير لزيادة التوكيد وتقرير لنزاهته عليه السلام عما هم عليه من عقيدة وعمل .

ثم نعى على اليهود ما اختلفوا فيه وهو يوم السبت فقال :

(إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ، و إن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) أى إنما جعل و بال يوم السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه ، فأحلوا الصيد فيه تارة وحرموه أخرى ، وكان من الحتم عليهم أن يتفقوا فيه على كلمة واحدة بعد أن أمروا بالكف عن الصيد فيه . كما أن و بال التحريم والتحليل من المشركين من عند أنفسهم واقع عليهم لا محالة .

و إن ربك ليفصل بين الفريقين فى الخصومة والاختلاف ، و يجازى كل فريق بما يستحق من ثواب وعقاب .

وإيراد هذه العبارة بين سابق الكلام ولاحقه — إنذار للمشركين وتهديد لهم بمـا فى مخالفة الأنبياء من عظيم الوبال والنكال، كما ذكر مثل القرية فيما سلف، إلى أن فى هذا حثا على إجابة الدعوة التى تضمنها سابق الكلام وأمروا بها فى لاحقه.

ثم فصل سبحانه ما أمر باتباع إبراهيم فيه فقال :

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) أى ادع أيها الرسول من أرسلك إليهم ربك بالدعاء إلى شريعته التى شرعها لخلقه بوحى الله الذى يوحيه إليك، وبالعبر والمواعظ التى جعلها فى كتابه حجة عليهم، وذكرهم بها فى تنزيله كالذى عدده فى هذه السورة. وخاصمهم بالخصومة التى هى أحسن من غيرها بأن تصفح عما نالوا به عرضك من أذى، وترفق بهم بحسن الخطاب، كما قال فى آية أخرى : « وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) الآية، وقال آمرا موسى وهرون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون « فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » .

ثم توعد سبحانه ووعد فقال :

(إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) أى إن ربك أيها الرسول لهو العليم بمن جار عن قصد السبيل من المختلفين فى السبت وغيره، وأعلم بمن كان منهم سالكا قصد السبيل ومحجة الحق، وهو مجازيهم جميعا حين ورودهم إليه على حسب ما يستحقون .

وخلاصة ذلك — اسلك فى الدعوة والمناظرة الطريق المثلى وهى الدعوة بالتى هى أحسن، وليس عليك غيرها .

أما الهداية والضلال والمجازاة عليهما فإلى الله سبحانه لا إلى غيره، إذ هو أعلم بحال من لا يرعوى عن الضلال لسوء اختياره، وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء لمـا ينطوى بين جنبيه من الخير، فمـا شرعه لك فى الدعوة هو الذى تقتضيه الحكمة وهو كاف فى هداية المهتدين وإزالة عذر الضالين .

ولما أمر رسوله بالدعوة وبين طريقها وكانت تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم والحكم عليهم بالكفر والضلالة ، وذلك مما يحمل أكثرهم على إيذاء الداعى إما بقتله أو بضربه أو بشتمه ، كما أن الداعى يدعوه طبعه إلى تأديب أولئك السفهاء تارة بالقتل وأخرى بالضرب ، لا جرم أمر الله المحقين برعاية العدل والإنصاف فى العقاب وترك الزيادة فيه فقال :

(وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) أى وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم فلكم فى العقاب إحدى طريقين :

(١) أن تعاقبوه بمثل الذى نالكم به ظالمكم من العقوبة .

(٢) أن تصبروا وتتجاوزوا عما صدر منه من الذنب ، وتصفحوا عنه ، وتحتسبوا عند الله ما نالكم به من الظلم ، وتكلوا أمركم إليه ، والله يتولى عقوبته ، والصبر خير للصابرين من الانتقام ، لأن الله ينتقم من الظالم بأشد مما كان ينتقم منه لنفسه .

والخلاصة — إنكم إن رغبتم فى القصاص فاقنعوا بالمثل ولا تزيدوا عليه فإن الزيادة ظلم ، والظلم لا يحبه الله ولا يرضى به ، وإن تجاوزتم عن العقوبة وصفحتم فذلك خير وأبقى ، والله هو الذى يتولى عقاب الظالم ويأخذ بناصر المظلوم .

ثم أمر رسوله بالصبر صراحة بعد أن ندب إليه غيره تعريضا ، لأنه أولى الناس بعزائم الأمور ، لزيادة علمه بشئونه تعالى فقال :

(واصبر وما صبرك إلا بالله) أى واصبر على ما أصابك منهم من أذى فى الله ومن إعراض عن الدعوة ، وما صبرك إن صبرت إلا بمعونة الله وحسن توفيقه ومشيئته المبنية على الحكم البالغة التى تنتهى إلى عواقب حميدة .

وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتهوين لمشاق الصبر عليه وتشريف له بما لا مزيد عليه .

(ولا تحزن عليهم) أى ولا تحزن على إعراض المشركين الذين يكذبونك وينكرون ما جئتهم به .

(ولا تك فى ضيق مما يمكرون) أى ولا يضق صدرك بما يقولون من الجهل بنسبتك إلى السحر والكهانة والشعر احتيالا وخديعة لمن أراد الإيمان بك ، وصدا عن سبيل الله .

وقصارى ذلك — إنه نهى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يضيق صدره مما يلقى من أذى المشركين على تبليغهم وحى الله وتنزيله كما قال : « فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ » وقال « فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » .

فالله كافيك أذاهم ، وناصرك عليهم ، ومؤيدك ومظهرك عليهم ، فمهما حاولوا إيصال الأذى بك ، فإن الله مبعده عنك ، ومحبط ماصنعوا وهم لايشعرون .

(إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) أى إن الله مع الذين اتقوا محارمه فاجتنبوها خوفا من عقابه ، والذين يحسنون رعاية فرائضه ، والقيام بحقوقه ، ولزوم طاعته فيما أمرهم به ، وفى ترك ما نهاهم عنه .

ونحو الآية قوله لموسى وهرون : « لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى » وقول النبى صلى الله عليه وسلم للصديق وهما فى الغار فيما حكى الله عنه : « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا » .

وقصارى ذلك — إن الله تعالى ولى الذين تبتلوا إليه وأبعدوا الشواغل عن أنفسهم ، فلم يحزنوا لفوت مطلوب ، ولم يفرحوا لنيل محبوب ، والذين هم محسنون أعمالهم برعاية فرائض الله وأداء حقوقه على النحو اللائق بجلاله وكماله ، وقد فسر النبى صلى الله عليه وسلم الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

والله نسأل أن يهدينا إلى سواء السبيل ، وأن يوفقنا للفقه فى دينه ، ويفتح لنا خزائن أسراره ، بحرمة كتابه ، وكنوز شريعته التى أنزلها على رسوله النبى الأمى ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته وسلامه على سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

مجمل ما حوته السورة الكريمة من الآداب والأحكام

(١) استعجال المشركين للساعة .

(٢) ذكر الأدلة على التوحيد بخلق العالم العلوى والسفلى وخلق الإنسان .

(٣) الامتنان على عباده بخلق الأنعام ومافيها من المنافع من أكل وحمل أثقال إلى البلاد البعيدة .

(٤) النعى على المشركين فى عبادة الأصنام والأوثان .

(٥) إنذار المشركين بأن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من المثلات وبما آتاهم من العذاب من حيث لايشعرون .

(٦) احتجاج المشركين بعدم الحاجة إلى إرسال الرسل بأن ماهم فيه من كفر وضلال مقدر مكتوب عليهم ، فلا فائدة فى إرسالهم ، وقد رد الله عليهم بأن وظيفة الرسل البلاغ والإنذار لاخلق الهداية والإيمان .

(٧) إجمال دعوة الأنبياء بأنها عبادة الله واجتناب الطاغوت ، ومن الناس من استجاب لدعوتهم ومنهم من حقت عليه الضلالة .

(٨) إنكار المشركين للبعث والنشور وحلفهم على ذلك ، وتكذيب الله لهم فيما يقولون .

(٩) إنكارهم بعث محمد صلى الله عليه وسلم بأنه رجل لاملك ، فكذبهم الله بأن الأنبياء جميعا كانوا رجالا لاملائكة .

(١٠) إنذار المشركين بعذاب الخسف .

(١١) جعلهم الملائكة بنات مع حزنهم إذا بشر أحدهم بالأنثى .

(١٢) رحمة الله بعباده وعدم مؤاخذتهم بذنوبهم ، وأنه لو آخذهم ما ترك على ظهر الأرض دابة .

(١٣) ذكر نعمه على عباده بإنزال اللبن من بين الفرث والدم ، وأخذ الثمرات من النخيل والأعناب والعسل من النحل .

(١٤) تفاضل الناس فى الأعمار والأرزاق .

(١٥) ضرب الأمثال لدحض الشركاء والأنداد من دون الله .

(١٦) الامتنان على عباده بخلق السمع والبصر وتسخير الطير فى جو السماء وجعل البيوت سكنا ، وجعله لنا سرابيل تقى الحر وسرابيل تقى بأس العدو .

(١٧) جعل الأنبياء شهداء على أممهم وعدم الإذن للكافرين فى الكلام وعدم قبول معذرتهم .

(١٨) الأمر بالعدل والإحسان وصلة الأرحام والنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، والأمر بالوفاء بالعهود والوعود وضرب الأمثال لذلك .

(١٩) الأمر بالاستعاذة من الشيطان و بيان أن سلطانه على المشركين .

(٢٠) تكذيبهم للرسول إذا جاءهم بحكم لم يكن فى شريعة من قبله من الأنبياء وادعاؤهم بأن هذا القرآن إنما هو تعليم من عبد رومى ورد الله عليهم ذلك .

(٢١) إنه لاضير على من كفر بالله وقلبه مطمئن بالإيمان دون من شرح بالكفر صدرا .

(٢٢) دفاع كل نفس عن نفسها يوم القيامة وجزاء كل نفس بما عملت .

(٢٣) ذكر ما حرمه الله من المطاعم والنهى عن تقوّلهم على الله بغير علم .

(٢٤) ذكر ما حرمه على اليهود بسبب ظلمهم .

(٢٥) مدح إبراهيم عليه السلام ووصفه بصفات لم يوصف بها نبى غيره ، ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم باتباعه وسلوك طريقته فى العقاب والصبر على الأذى.

وقد انتهى تصنيف هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة عصر يوم الأربعاء الثلاثين من جمادى الآخرة من سنة ثلاث وستين وثلاثمائة من هجرة سيد ولد عدنان .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء